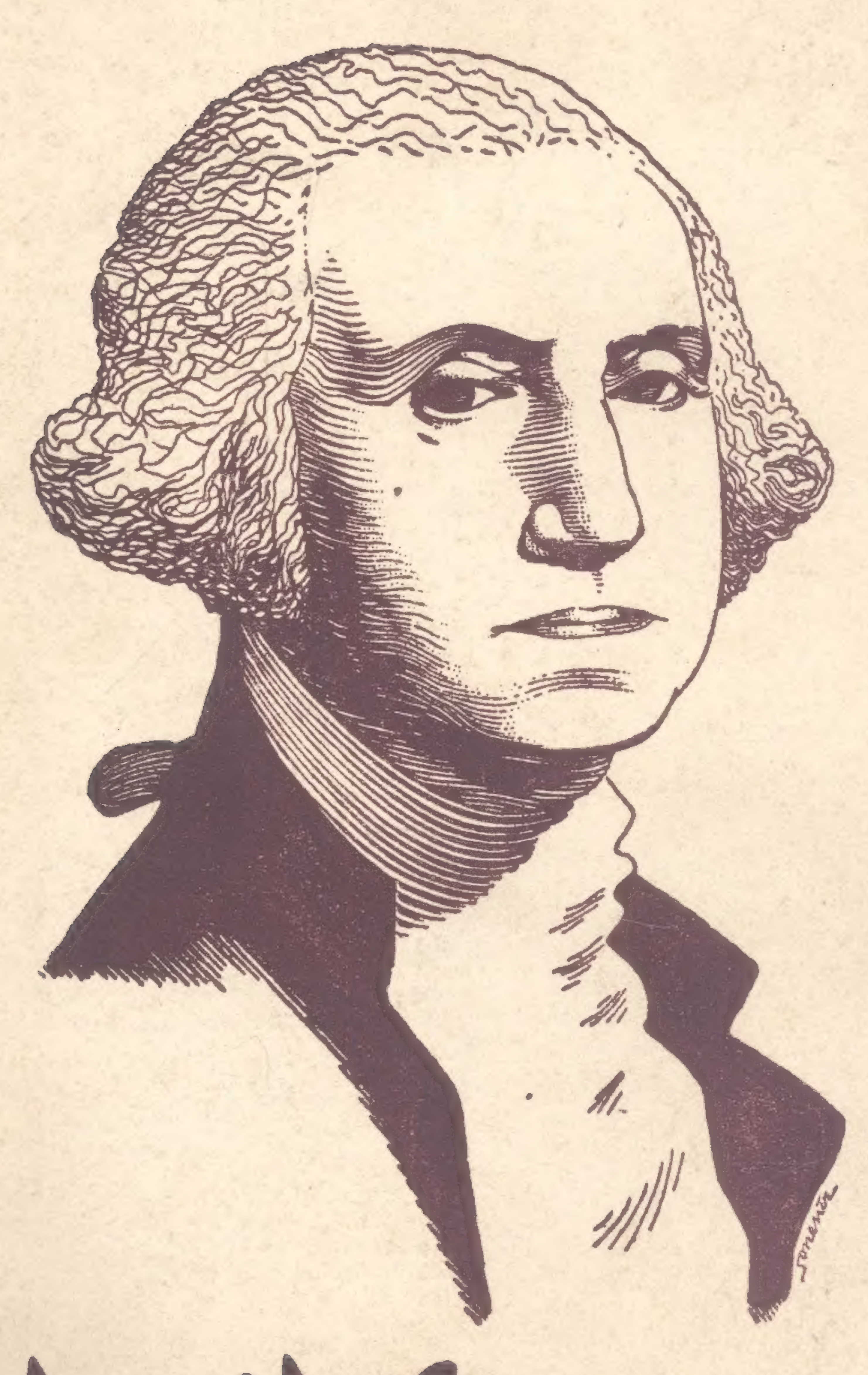
چينيڤيڤ فوستر



جورج واشنطن

سيرة
جورج والشيطان

كتبتها للشباب
چينيڤيڤ فوستر

ترجمها للعربية
امين مرسى قنديل

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

"GEORGE WASHINGTON"

An Initial Biography

By

Genevieve Foster

Published By Permission

of

Charles Scribner's Sons,

New York.

الأسرة

فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٧٣٢، حوالى الساعة العاشرة صباحاً بمزرعة تبغ فى فرجينيا ، أقدم مستعمرات ملك الانجليز بأمريكا ، كان السيد أوغسطين واشنجطن يترقب حدوث أمر ذى بال ، وقد أخذ منه القلق كل مأخذ ؛ فجعل يسير على مهل ذهاباً وجيئة ، قبالة الموقد ، وخلف باب مغلق فى حجرة الجلوس ببيته الصغير ذى السقف المنخفض الذى يُطل على نهر « بوتوماك » .

وكان يُخرج من جيب صداره الفينة بعد الفينة ، ساعة ذهبية كبيرة ، فينظر إلى عقربيها ، ثم يقارنهما بعقربى ساعة الحائط الطويلة القائمة فى ركن من أركان الحجرة ، وهما لا يكادان يتحركان . ثم سار إلى حيث النافذة ، ووقف أمامها ، وقد انفرجت ساقاه المكسوتان جوربين أبيضين يضربان إلى الصفرة ، إحداهما عن الأخرى ، وانعقدت يداه خلف ردائه الأرجوانى ، وجعل ينظر من زجاج النافذة ذى المربعات الصغيرة يتأمل صباح الربيع الناضر .

وفجأة سمع صوت المزلاج يتحرك ، وانفتح الباب القائم خلفه ، فبرزت منه أخيراً زنجية عجوز تحمل فى يديها لفافة بيضاء ؛ قالت ، وعلى وجهها الأسود اللامع ابتسامة عريضة : هاكه يا سيد واشنجطن ، إنه لصبى ممتلىء جميل ، وقدمت إليه الطفل كى يراه وهى فخورة معتزة .

وبعد عدة أيام جرى البحث عن اسم للطفل ، فقالت أمه : نسميه « چورچ » . فهو ابنها البكر ، وتود أن يكون اسمه على اسم الرجل الذى كان وصياً عليها .

وعندئذ صاح زوجها ، وقد بدت عليه الدهشة : أتريدين أن تسميه چورچ واشنجطن ؟ »

نعم ان چورچ اسم مليكهم ، ما فى ذلك شك ؛ ولكن من الذى سمع بأحد من أسرة واشنجطن اسمه چورچ ؟

ان أوغسطين ولورانس اسمان شائعان فى الأسرة ، وكذلك اسم چون ، فهو اسم جده أول من هاجر من انجلترا ، من أسرة واشنجطن ، منذ ستين سنة ووفد على فرجينيا يزرع التبغ فى هذه المزرعة عينها التى تُطل على نهر بوتوماك .

ولكن السيدة مارى بول واشنجطن كانت قد عزمت أمرها ، ووافقها زوجها على ما اعتزمت . فعند تعميد الطفل فى شهر ابريل ، سموه بالاسم الذى جعله شهيراً يجرى على كل لسان .

بدأ جورج واشنجطن الصغير يتعلم المشى ؛ وقبل أن يثبت على قدميه ، رزق أختاً سموها بيتى ؛ فكانت طفلة جميلة لها عينان عسليتان مثل عينى أخيها ، وشعر أسمر ضارب إلى الصفرة ؛ وسرعان ما بدت صورة كاملة لأخيها هذا حتى كأنها توأم له .

وفى السنة الثانية كان أخ صغير لجورج اسمه « سام » يتأرجح فى مهده ؛ وما إن بلغ جورج السادسة وصار فى استطاعته أن يعد عشرة ، ويركب حصانه الصغير ، ويركض به فى شتى أرجاء المزرعة ،

حتى صار له ثلاثة إخوة : هم سام ، وجون ، وتشارلى .

وذات يوم أنبأ الوالد أهل بيته أنهم سينتقلون من هذا البيت إلى آخر غيره ؛ فقد اشترى مزرعة جديدة اسمها « فرى فارْم » تقع على نهر « رَبّاهانوك » .

ولم تكن هذه بأول مرة تنتقل فيها الأسرة من بيت إلى بيت ، ولكن جورج لم يتذكر ذلك الانتقال . أما هذه المرة فقد راعه أن أن يرى كل شىء يحزم ، وأن يركب هو عربة يظل فيها اليوم كله من الصباح الباكر ، تسير به وسط الغابات ، وعلى طريق وعثاء غير ممهدة ، وأخيراً يرى ذلك البيت الذى تغرب الشمس خلفه ؛ وهو بيت مطلىّ بلون أحمر قاتم يقوم على ربوة عالية وسط أشجار الصنوبر .

وكان هذا البيت مكوناً من ثمانى غرف ، جعل جورج وأخته بيتى يجريان فيها ويعدانها واحدة واحدة ،ثم يسرعان فيصعدان السلالم ثم يعودان فيهبطان إلى الدور السفلى ، ويفتحان كل مايصادفهما من الأبواب ، ومرافق المنزل ، ويرقبان الأمتعة ، أثناء نقلها إليه ويريان إعداد الفرش ،ويسألان عن المواضع التى سينام فيها كل فرد من أفراد الأسرة .

وفى بكرة اليوم التالى خرجا يستكشفان ملحقات الدار ، ويتفرجان على معامل الألبان ، والمخازن والمطبخ وسائر الأمكنة المستقلة عن المبنى الكبير ، ويشاهدان الحظائر والبئر . ثم انحدرا على سفح الربوة كى يشاهدا النهر و «المعدية» .

أما النهر فقد خيب آمالها ؛ فهو لا يعدو أن يكون مجرى صغيراً إذا ما قورن بنهر البوتوماك . أما « المعـــدية » فكانت مدهشة حقاً ، لأنها تبدأ مسراها من رصيف عند مزرعتهما ، وتنقل الناس والدواب عبر النهر إلى مدينة فردريكسبورج .

وكانت لهما عمة اسمها مِلْدرد ، تسكن مدينة فردريكسبورج هذه . ولم يكن جورج قد رأى مدينة ما فى حياته قبل زيارته وأخته لهذه المدينة ؛ ففيها أشياء كثيرة يتفرجان عليها ... بيوت وحوانيت متراصة ، ومخازن كثيرة للتبغ تقوم على الرصيف عند النهر ، ومحكمة إقليمية ، وسجن مبنى بالحجر ، وكنيسة ذات برج عال .

وكان للسيد مارى القسيس ، واعظ المدينة ، مدرسة ، يخرج تلاميذها عند الظهر ليلعبوا فى الفناء . ورأى جورج مرة خمسة أو ستة من هؤلاء التلاميذ فى دكان العطار يشترون منه الحلوى المصنوعة من السكر الأحمر ، فتمنى لو كان واحداً منهم ، .. ولمَ لا ؟ لقد قاربت سنه السابعة ، وعلمه السيد « هوبى » كيف يعد الأرقام ، فما الذى يحول دون التحاقه بمدرسة فردريكسبورج مع التلاميذ أمثاله ويركب « المعدية » كل يوم يعبر بها النهر .

سفينة التبغ

ما كاد جورج واشنجطن يستيقظ من نومه ويفتح عينيه صباح يوم من شهر أبريل حتى هب من فراشه ؛ ومع أنه استيقظ هذا اليوم أبكر مما اعتاد فقد سارع إلى ارتداء قميصه وسراويله الدكناء ، وشدها على وسطه من الخلف بأسرع مما يستطيع ، فليس لديه دقيقة واحدة يضيعها من وقته . فاليوم يوم شحن السفينة .

وذلك أن سفينة كبيرة وصلت من بلاد الانجليز منذ بضعة أسابيع حاملة أشياء طريفة لكل فرد من أفراد الأسرة ... أحذية جديدة ، وقبعات ، ولعب ، وأدوات شتى ، وأطباق وغير ذلك من الأشياء الدقيقة المصنوعة فى انجلترا . والآن فان هذه السفينة تشحن تبغاً ، لتعود به إلى بلاد الانجليز .

فأسرع جورج وهبط السلم ، ونادى فى طريقه كلا من بيتى وسام ، وخرجوا جميعاً إلى حيث الكلأ الندىّ يجرون كلهم فى الطريق المغطاة بأشواك الصنوبر اللينة متجهين نحو النهر . ومن طرف الرصيف ، كان جورج يستطيع أن يشاهد السفينة بسارياتها الثلاث ، ويرى ثلة من الرجال وقفوا عند منتصف الطريق : وهم أبوه ، والربان ، وناظر المزرعة ، وعشرة أو إثنا عشر من الزنوج الذين يعملون فى نقل البراميل .

فكان يسمع هؤلاء الرجال يصيحون : يا ولد ! مستعد ؟ خلّ سبيله ! وذلك كلما أرسلوا برميلا ضخما إثر برميل آخر ضخم

مثله ، فيتحدرج على المنحدر فوق « السقالة » إلى أن يصطك عند الرصيف ثم يستقر آخر الأمر فى عنبر السفينة .

تسلق جورج أحد هذه البراميل ووقف عليه ليكون بمنأى عن حركتها ، ويرى فى الوقت ذاته كل ما يحدث .

وما لبث أن سمع صرخة طويلة ، فقد أفلت الحبل ، وضل أحد البراميل طريقه فاندفع يهوى على المنحدر نحو البحر ؛ ولولا أن الواقفين على الرصيف استطاعوا أن يصدوه فى الوقت الملائم لهوى فى الماء وضاع . ولا شك أن ضياع برميل بمثل هذا الشكل الأخرق أمر يدعو إلى الأسف . فالتبغ يستعمل فى فرجينيا بدل النقود ، ولكن جورج لم يكد يدرى على وجه التحديد مقدار الأشياء التى يمكن أن تشترى من انجلترا ببرميل واحد من التبغ ، على حين كان والده يقول إن مقدار ما يشترى لا يمكن أن يعادل قيمة ما فى البرميل من التبغ . ثم تحدث إلى ربان السفينة فيما بعد فى هذا الشأن ، وهما يتناولان فطوراً ثانياً مع أفراد الأسرة هذه المرة .

ولم يكن جورج حتى ذلك الوقت قد شعر بعد بالجوع ؛ أما الآن ففى معدته الخاوية متسع « لكفتة » السمك واللحم المقدد ولعدة أقراص من الخبز المصنوع من دقيق الأذرة ، ولثلاثة أقداح كبار من اللبن ، وبضع كعكات يتناولها الواحدة بعد الأخرى كل مرة يأتى فيها صبى الطاهى بالكعك ساخناً من المطبخ .

وسمع جورج والده يقول لربان السفينة : « انه لمما يثبط همة المرء منا ، أن ما نحصل عليه فى مقابل التبغ يتناقص عاماً بعد عام

فالتجار فى لندن هم الذين يحددون الأسعار ، فماذا بوسعنا أن نفعل فى هذا الشأن ؟ »

فهز الربان رأسه ، وأقسم إنها لمشكلة حقاً . وشرح مدى صعوبة المحافظة على التبغ جافاً أثناء نقله فى البحر . ثم تحدث إلى الوالد عن الرحلة ، فقال : إنه إذا أسعدهم الحظ وواتهم الريح والجو ففى وسعهم أن يقولوا انهم سيعودون عبر المحيط فى ثلاثة أشهر .

وكان جورج يصغى إلى كل كلمة ينطق بها الربان . ولا شك فى نظره أنه شىء رائع أن يكون المرء رباناً لسفينة من سفن التبغ . وتمنى لو أنه يلبس يوماً ما تلك الحلة الزرقاء ذات الأزرار الفضية ويبحر إلى بلاد الانجليز ويعود منها فى رحلات ذات خطر وشأن .

أخوه الكبير لورانس

قف ! كتفاً سلاح ! إلى الأمام سر ! — نداءات كانت تتردد فى أرض فضاء بمدينة فردريكسبورج حيث كانت فرقة من الجند يتحرك أفرادها جماعة ذهاباً وجيئة وهم يتدربون عسكرياً فى تلك الساحة استعداداً للحرب .

وكان اليوم المدرسى قد انتهى ، وصرف القس مارى تلاميذه ، فاندفع جماعة منهم (وفيهم جورج نفسه) تتراوح أعمارهم بين الثامنة والتاسعة يتفرجون على الجند وهم يتدربون ؛ فجعلوا يتعرفون على أصحابهم وأقاربهم. وإذا بأحد التلاميذ يصيح : ذاك هو يا جورج ! الضابط ... انه أخوك الأكبر لورانس !

اليوزباشى لورانس واشنجطن ! لقد سبق لجورج أن رآه حقاً ، فجعل قلبه يخفق بسرعة عظيمة حتى خشى أن يلحظه الصبيان فيلومونه على إسرافه فى اعتزازه العظيم بأن له أخاً كبيراً يعمل ضابطاً ويرأس هذه الفرقة .

ولم يكن جورج قد عرف أخاه الكبير هذا منذ زمن طويل ، فهو لم يعرفه إلا منذ عاد من انجلترا ؛ ولكنه كان كثيراً ما يسمع عن لورانس ، وعن أوغسطين ، أو أوستن كما كانوا يدعونه عادة ، وهما أخواه غير الشقيقين .

فبعد ميلاد جورج بقليل كان لورانس فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان أوستن فى الثانية عشرة ، وقد أرسلهما والدهما إلى انجلترا

ليدرسا فى المدرسة التى تعلم هو فيها من قبل،والتى سيذهب إليها جورج يوماً ما عندما يكبر، والتى لا زال أوستن يتعلم بها . أما لورانس فقد عاد إلى أمريكا وقد بلغ الثالثة والعشرين ربيعاً وأصبح يوزباشياً يرأس فرقة الجند التى رآها جورج تتدرب فى فردريكسبورج .

وعلم جورج من أخيه لورانس أنه فى طريقه إلى ميدان القتال، فقد نشبت الحرب بين انجلترا وإسبانيا .

ثم جعل لورانس يشرح لأخيه جورج أنهم الآن يحاربون فى جزائر الهند الغربية فى الناحية الأمريكية من المحيط الهادى،وقص عليه كيف استولى أمير البحر الانجليزى واسمه « فرنون » على حصن من الحصون الإسبانية، وكيف أن الملك طلب من المستعمرات فى أمريكا أن تعد فرقاً من الجند وترسلها إلى ميدان القتال للاشتراك فى هذه الحرب ، فانضم إليهم لورانس .

وليلة حضر لورانس إلى المدينة ومعه سيفه الجديد أذن لأخيه الصغير أن يلمس نصله الصقيل،وأن يجرب معطف حلته الجديدة، وأوصاه أن يحترس من أن يطأ ذيلها من الخلف .

وبعد بضعة أسابيع شاهد جورج أخاه لورانس وفرقته من الجنود يركبون سفينتهم ويرحلون وسط أصوات المزامير ودقات الطبول وصليل السيوف وهتاف الشعب؛فأصبحت المدينة بعد رحيلهم مكتئبة فارغة فى نظر الأطفال،وظلت كذلك إلى أن خطرت لأحدهم فكرة نيرة؛فسارعوا جميعاً إلى تلك الأرض الفضاء يذرعونها غادين رائحين كأنهم الجند وفى أيديهم عصى أو سيقان أذرة على أنها

سيوف وبنادق حقيقية . وبعد سنتين انتهت الحرب ،وعادت الجنود إلى أوطانها . وكان جورج قد كبر وطالت قامته ست بوصات ، وصار أسرع عدواً ،وأقدر على ركوب الخيل ،وأصبح يلقى الأحجار إلى مرمى أبعد مما يستطيع أن يرمبها أى صبى آخر فى العاشرة من عمره .

وعاد أوستن إلى وطنه ومعه هدايا وطرف منوعة لكل فرد من أفراد الأسرة أحضرها لهم من انجلترا ،فلأبيه خطابات وجرائد ، ولزوجة أبيه شاياً ،ولإخوته الصغار كتباً ولعباً شتى . فلا غرو أن أحب جورج أوستن هذا ،فهو شفيق به ، كثير العطف عليه ،يعامله معاملة الصديق . ولكنه مع ذلك لم يكن ليحل محل لورانس ولذا ظل قلقاً جزوعاً حتى عاد لورانس .

وذات يوم عاد لورانس فعلا . وما أكثر ما كان فى جعبته من قصص تدور كلها حول المعركة التى اشترك فيها وعلى قائدها أمير البحر فرنون الذى بلغ من الشجاعة والمهارة مبلغاً لا يبارى . وكان لورانس أسمر اللون ، جميل المحيا ، تلتمع عيناه وتتحرك يداه باشارات سريعة سهلة . فجلس جورج أمامه على مقعد منخفض يتأمله ويستمع إلى أحاديثه وهو مأخوذ بما يسمع ... فلم يكن فى الوجود أحد أروع من أخيه لورانس هذا ، ولا أبدع منه .

ولكن أمه لم تكن بالطبع من رأيه ؛فهى ميالة إلى ابنها هى ؛ فهو فى نظرها أصلب عوداً وأقل نحافة من اورانس ،ذلك إلى أنه أشبه ما يكون بأفراد أسرتها من آل بولز .

أما والدهم فكان يسوى بين أولاده جميعاً فى حبه إياهم على أنه من الطبيعى كذلك — وكما هى العادة والعرف عند كل انجليزى — أن يعنى بابنه البكر خاصة لأنه هو الذى سيكون عميد الأسرة يوماً ما .

* * *

ولم يكن جورج قد جاوز الحادية عشرة عندما توفى أبوه فجأة فى شهر أبريل ، حين كانت الحقول زاهية بخضره أوراق شجر التبغ . ولم يكن جورج فى المنزل حينذاك لأنه كان غائباً عن البيت فى زيارة لبعض بنى عمومته؛ فجاءه الرسول ليعود به إلى المنزل لأن أباه قد اشتدت به العلة .

فحضر جورج على وجه السرعة وصعد على أطراف قدميه إلى تلك الحجرة المظلمة حيث وجد أباه ممدداً على سريره ممتقع اللون وفى شكل غير مألوف .

وبعد قليل فارق الحياة . وظلت أم جورج دامعة العينين . ولما حل ميعاد الجنازة ارتدى الأطفال خير ملابسهم وعقدت بيتى على رأسها شريطاً أسود اللون . ثم جاء دور قراءة الوصية التى كتبها والدهم قبل وفاته، فتبين آنه قد نص فيها على أن يؤول الجزء الأكبر من التركة إلى ابنه الأكبر — لورانس، بحسب ما جرى عليه العرف . وبعد أن تمت قراءتها لحظ جورج أن وجه أمه قد اربد وعلاه الاكتئاب : فقالت بصوت فيه رنة الأسى ،ستتغير أحوالنا يا بنى تغيراً كبيراً . فليت شعرى كيف سندبر أمور عيشنا بعد ذلك ؟ لست أدرى والله، فأنت يابنى المسكين ، لم يعد فى الإمكان أن تعمل

ما كنت تعمله لو ظل أبوك العزيز على قيد الحياة » .

وكان معنى هذا أنه لن يستطيع الالتحاق بالمدرسة فى انجلترا ، وذلك أمر لم يغرب عن ذهن جورج . ولكن لاشك فى أنه لايعنى أنهم لن يجدوا ما يكفيهم من المأكل والمشرب . فهذا لن يكون مطلقاً ما دامت لهم مزرعة فرى فارم . ألم يذكر أبوه فى الوصية أن المزرعة ستكون له عندما يبلغ الحادية والعشرين ؟

وهزت أمه رأسها

ومهما يكن الأمر ، فانها تستطيع أن تظل فى تلك المزرعة ما شاءت ، حتى إذا ما كبر جورج اشترى مزارع جديدة وأصبح من ذوى اليسار والمال .

ولكن الأم عادت تهز رأسها من جديد ، وسألته وهى مكتئبة واجمة : أنى له المال يشترى به الضياع والمزارع ؟

وبالطبع لم يكن جورج يدرى على وجه التحديد . ولكنه مع ذلك كان واثقاً من أنه سيجد وسيلة ما يكسب بها المال اللازم . وعندئذ يتسنى له أن يشترى فدادين وفدادين من الأراضى ، ويشحن كل سنة براميل وبراميل ملأى بالتبغ إلى انجلترا ويشترى بها كل شىء يريدونه منها .

آداب السلوك

جلس جورج ذات يوم من أيام الشتاء ومعه كتاب ينسخه . وهو كتاب أخضر اللون باهتة ، أقامه أمامه بين محبرة من الزنك ، ووعاء ملىء رملا يستعمل فى تجفيف المداد . وكانت فى يده تفاحة قضم منها قضمة ، ثم غمس فى المحبرة قلماً مصنوعاً من ريش الإوز ، وكتب فى حرص واهتمام فى أول صحيفة من صحائف الكراسة التى معه :

آداب اللياقة والسلوك
فى الجماعة وفى المحادثة

وقال فى نفسه : هذا ما أبغى . فعندما يذهب لزيارة لورانس المرة التالية يكون قد عرف كيف ينبغى أن يسلك كما لو كان قد التحق بالمدرسة فى بلاد الإنجليز وتعلم بها .

وكان جورج قد بلغ الثالثة عشرة من عمره بل أناف عليها . وتزوج أخواه لورانس وأوستن ،وجعل يتردد عليهما ويقضى عندهما شهوراً فى بعض الأحيان . وقد تطول زيارته حتى ظننت بيتى ،وظن إخوته الصغار أنه قد غادرهم وسيعيش بعيداً عنهم . ولكن لا ! فقد كان دائماً يعود إلى البيت مهما طالت غيبته،فأمه حريصة كل الحرص على أن يعود .

وكان أوستن يعيش فى المزرعة ، ويقطن البيت ذاته الذى

ولد فيه جورج . أما لورانس فقد اتخذ له مزرعة أخرى على نهر بوتوماك بعيدة عن الأولى التي كانت تسكنها الأسرة منذ كان جورج في الثالثة من عمره إلى أن انتقلوا إلى مزرعة « فرى فارم » . ولما كان البيت القديم قد احترق فقد ابتنى لورانس بيتاً آخر جديداً أسماه « ماونت فرنون » تكريماً لذكرى أمير البحر فرنون .

وكانت زيارة جورج للورانس وآن في ماونت فرنون تختلف كثيراً عن زيارته لأوستن وجين في مدينة ويكفيلد . فعلى حين كانت الحياة عند أوستن هنية رغدة وشبيهة بحياته في منزله ، كان الذهاب إلى ماونت فرنون بمثابة الانتقال إلى عالم جديد .

فالحياة في تلك المدينة مثيرة تجرى على أحدث طراز . وكان كثيرون من كبار القوم وعليتهم يترددون على ماونت فرنون، يغدون ويروحون ، منهم كثيرون من ضباط البحرية والجيش البريطاني أصدقاء لورانس الذين سبق أن تعرف بهم في بلاد الانجليز ، كما كان منهم كثيرون كذلك من خير أهل المستعمرات وسراتها . وكانت تقام لهم ولائم فخمة في البيت ، وتعقد مجالس للعب الورق كل مساء ، كما كانت تعد رحلات لقنص الثعالب تبدأ منذ الصباح الباكر .

وكان آل « آن » يسكنون مزرعة مجاورة لماونت فرنون، وكان السير ويليام فيرفاكس، والد آن، من خيرة الرجال وأفاضلهم . كان نبيلا حقاً في كل شيء . وكان له ابن عم لورد يقيم في انجلترا وهو ثريّ واسع الثراء، ويملك في فرجينيا أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة وراء سلسلة جبال البلو ريدج ؛ هكذا يقول لورانس .

وكان أكثر ما يتحدث فيه لورانس والسير ويليام يدور حول موضوع الأراضى . فكانا يتناقشان فى خير الوسائل للاستكثار من شرائها ، والاستزادة من المزارع وضمها إلى ما يملكان منها ... وهذا نفسه هو ما يبغى جورج أن يعمله ويسعى وراءه .

فتلك كانت الخطة التى وضعها جورج لنفسه ليسير عليها فى حياته يوماً ما ، كما يعيش لورانس فى ماونت فرنون . ولم يكن يضايقه سوى شىء واحد . ذلك أن كل إنسان فى ماونت فرنون يسلك السلوك الصحيح مع الناس ، ويعرف على وجه التحديد ما ينبغى له أن يفعل من غير أن يقتضيه ذلك شيئاً من التفكير . أما هو فلم يكن يدرى أحياناً إن كان الأولى به أن يجلس أو يقف ، أن يصافح بيده أو يكتفى بالانحناء ، ولم يكن يعرف ماذا يفعل بيديه ورجليه ، ولا أين يضعهما . فلا غرو أن نراه قد سر كل السرور عندما عثر بكتاب فى موضوع آداب اللياقة والسلوك ، وهو أول كتاب استرعى نظره ، فأخذ يتصفحه ويقرأ فيه مقتطفات من هنا وهناك .

فقرأ فيما قرأ : « إن كل عمل تعمله أمام جماعة من الناس يجب أن يقترن بمظهر من مظاهر الاحترام لهم ... فاذا ما سعلت أو عطست أو تأوهت أو تثاءبت فاحرص على ألا يكون ذلك بصوت عال ، بل ينبغى أن يكون على استخفاء ... لاتنم والناس يتحدثون ... ولا تجلس وهم وقوف ... لاتبصق فى الموقد .. إذا ما دخلت مكانا ما فارفع قبعتك لمن فيه من ذوى الوجاهة ...

إذا تحدث إليك أحد وأنت جالس فقم ... لا تُظهر الشماتة

بأحد حلّت به كارثة ولو كان عدواً لك ... لا تنظف أسنانك بمفرش المائدة ! » وهكذا ...

أليس هذا هو ما ينشد أن يعرفه ؟ إنها كلها قواعد يجب أن تتبع . وعددها مائة قاعدة وعشر . فعزم على أن ينسخها كلها .

هذا هو ما يجب عليه أن يبدأ به إذن . وها هو الكتاب قائم أمامه . فتزود ببضع تفاحات وبحفنة من الجوز وقطعة من السكر الأحمر ، وأعد ريشة فجعل لها رأساً مستدقاً ثم كتب عنوان الكتاب . وظل ينسخ منه ذلك اليوم كله ما استطاع أن ينسخ من صفحاته . ونسخ فى اليوم التالى أكثر مما كتبه فى اليوم الذى قبله . وظل ينسخ وينسخ حتى بلغ القاعدة رقم ١١٠

وكانت تقول : « اعمل على استبقاء الشرارة «السموية» ، التى نسميها الضمير ، حية فى صدرك » ، وكتب لفظة « السماوية » خطأ . ولكنه ختم ما نسخه ببضع زخارف وحلى وبالكلمة اللاتينية التى معنـــــاها :

« انتهى »

لقد ألمّ بقواعد السلوك الآن ، ولم يبق عليه إلا أن يتدرب عليها ، فيجعل أخاه لورانس يفخر به .

البحر أم المساحة

كان المساحون يعملون ذات يوم فى مسح قطعة أرض فضاء بمدينة فردريكسبورج كان الجند يتدربون فيها التدريب العسكرى. وكانوا مشغولين بتخطيط شارع جديد، فمنهم جماعة يجرّون «الجنازير»، وآخرون ينقلون «الشواخص» من مكان إلى مكان، ثم ينظر كل منهم باحدى عينيه فى آلة «البوصلة» القائمة أمامه على حامل ذى ثلاثة أرجل، ويحركون سواعدهم حركات معينة.

ووقف جماعة من الصبية يرقبونهم ويتفرجون عليهم، وكان جورج معهم؛ وكلهم فى الرابعة عشرة من أعمارهم أو يزيدون عليها يتلهفون على أن يسمح لهم بأن يساعدوا الجنود فيما يعملون. وحدث أن جندياً غادر محله قبل زملائه فرآه جورج وانتهز غيابه فرصة طيبة ليحل محله. وبينما هو يعمل فى جمع «الجنازير» سأل عن الأجر الذى يتناوله مساعد المساح عادة، فأعطاه الجواب. فكرة عن الأجور، وعاها فى ذاكرته.

ثم جرى نحو «المعدية»، ولكنها كانت بارحت ضفة النهر؛ فاضطر إلى الانتظار وساوره القلق، لأن الظلام سيكون قد أرخى سدوله عند عودته.

وفى الصباح الباكر كان جورج فى البيت ينقب فى المخزن حتى وجد ما ينشده خلف عجلة مغزل قديمة، وتحت كرسى عتيق ذى مقعد ممزق من الجلد الأحمر. وكان ما يبحث عنه صندوقاً

كبيراً قاتم اللون، له يد من حديد، ومربوط معه حزمة من العصى — وكلها أدوات قديمة مما يستعمله المساحون فى قياس الأراضى — وكانت ملكاً لوالده .

فلما نشر أرجل الحامل الثلاث وأرساها على الأرض، أخرج «البوصلة» وثبتها حيث تلتقى هذه الأرجل ، إذا به يصيح أن الأدوات سليمة كلها ! فها هى قد توافرت له الآن، فأجمع أمره على أن يكون مساحاً . ولكن المساح يجب أن يكون ملماً بالرياضة . على أن هذه أمرها هين؛ لأن المستر ويليامز الذى يقطن على مقربة من أوستن، مدرس قدير . ذلك إلى أنه إذا حدث وحصل على وظيفة مساح كان لديه مجال فسيح ليتعلم التخطيط والقياس من كثرة ما يلاحظ المساحين وهم يقومون بعملهم . وكان واثقاً من أن لورانس أخاه سيقر هذا الرأى ويراه معقولا . فاذا ما حذق العمل وأتقنه فان الكولونيل فيرفاكس أو لورانس سيدعوه فى يوم من الأيام ليقوم بمسح مزرعة جديدة له .

ولكن قبل أن يتحدث جورج إلى أخيه فى هذا الموضوع، وصله خطاب منه يعرض عليه فيه فكرة جديدة، وهى فكرة رائعة حقاً، حتى أنه ظل عدة أسابيع لا يفكر فى شىء غير الانخراط فى سلك البحرية .

هذا هو ما يريده

فقد قال له لورانس : ما رأيك يا جورج فى الانضمام إلى البحرية فتصبح يوماً ما ضابطاً من ضباطها ؟ فلديه من الأصدقاء

من يثق بأنهم سيعاونونه على الحصول على وظيفة له فيها .

يعمل فى البحر ؟ ويصبح ضابطاً من ضباط البحرية البريطانية ! وعندئذ تدفقت عليه الخواطر والأحداث التى كان يقصها عليه لورانس بشأن أمير البحر فرنون . فهل يتيسر له يا ترى أن يبدأ عمله ثم يظل يتدرج فى سلم الرقى حتى يصبح ذات يوم أمير البحر واشنجطن ؟ ثم تخيل نفسه وقد ارتدى حلة براقة محلاة بالذهب ، وفى قبعته ريشة بيضاء ترفرف على رأسه .

ثم لم يلبث أن نزل من سماء الأحلام إلى الأرض الصلبة ، فهو لم يتخط بعد الرابعة عشرة من عمره ،ولن يتيسر له الالتحاق بالبحرية إلا بموافقة أمه ورضاها . وكان لورانس قد أفصح له فى خطابه عن خشيته من أن أمه لا توافق . وفعلا فانها لم ترض ، فقد أجابت « لا » ! بالنفى القاطع .

أفترسل ابنها العزيز عليها ليعمل فى البحر — فى ذلك المحيط المريع الملىء بالأخطار ؟ إنها لن تستمع إلى شىء من ذلك . وكل ما يمكن أن تفعله فى هذا الشأن هو أن تكتب إلى أخيها جوزيف فى انجلترا تستشيره فى الأمر . وسرها كل السرور أن يجيئها الرد بعد عدة أسابيع بالإجابة التى نتوقعها . وإليك شيئاً مما جاء فى خطابه .

أختى العزيزة

يبدو لى أنك تفكرين فى إلحاق ابنك بالبحرية . وفى رأيى أن الأولى به أن يعمل صبياً عند سمكرى من أن يكون نوتياً أمام

السارية ، فلسوف يذيقه رؤساؤه صنوف العذاب ، فيضربونه ويلهبون جسمه بالسياط ، ويعاملونه كما تعامل الكلاب . أما من حيث ترقيه فى البحرية فذلك أمر غير منظور ، ولو حدث وترقى حتى صار رباناً لسفينة من سفن فرجينيا ، فان مزارعاً يملك ثلاثمائة فدان أو أربعمائة ، وثلاثة أو أربعة من العبيد ، لاشك يكون أسعد منه حالا وأرغد عيشاً ، هذا وإنى أدعو الله أن يحفظك ويحفظه .

أخوك المحب
جوزيف بول

على أن هذا الرد لم يكن مما يدهش له جورج . فقد كان يتوقع شيئاً مثل ذلك الرفض ، فهو لم يخيب أمله بقدر ما كان يمكن أن يخيبه إذا لم يتأخر الرد ذلك الزمن الطويل ، ففيما هو فى انتظاره استأنف عمله فى مسح الأراضى ، ولم يلبث حتى نسى كل شىء لا يستطيع أن ينجزه فى زحمة قيامه بما يستطيع أن يؤديه فعلا ..

وبعد ثلاثة أشهر أجيز له أن يضطلع وحده بعملية مسح كاملة قام بها لأول مرة من غير أن يعاونه فيها أحد . وانا لنقرأ تحت الأرقام التى دونها فى كراسة الحقل الخاصة به تاريخ هذا العمل ، وهو ١٨ أغسطس سنة ١٨٤٧ ، وكان وقتئذ فى منتصف السنة السادسة عشرة من عمره .

ثم بعد زمن غير طويل جاء ذلك اليوم العظيم الذى نال فيه جورج أجراً على عملية مساحية قام بها ، فقد حصل على هذا الأجر نقداً صحيحاً ، وعاد إلى بيته ليلا وفى جيبه جنيهان وخمسة شلنات

جعلته يشعر أنه قد أصبح رجلا حقاً ومساحاً فعلا .

وغادر جورج «فرى فارم» هذا الربيع وقد أناف على الخامسة عشرة ، حاملا أدوات المساحة ، وكراسته ، وموسى جديدة (وان لم يكن بحاجة ماسة اليها) ليعيش مع أخيه غير الشقيق ، اورانس ، فى ماونت فرنون .

وهناك عرف أن اللورد فيرفاكس — ذلك الثرىّ الذى كان جورج يتلهف على رؤيته ، والذى قيل إنه يملك وحده أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة — قد وصل تواً من بلاد الانجليز .

اللورد فيرفاكس - صديق جديد

سرعان ما أحب اللورد فيرفاكس، أخا لورانس واشنجطن هذا، كما أن جورج راعه كل الروعة أن يرى هذا اللورد الثرىّ وإن كان قد دهش أول الأمر أن يجده أشد جفوة من ابن عمه السير ويليام وأكثر منه إيجازاً فى كلامه .

ولم يكن اللورد يحفل أى احتفال بالنساء، ولذلك كان يجلس وحده فى ركن قصىّ من أركان الحجرة يتظاهر بالقراءة، والقوم يتسامرون .

ففى ليلة صاحية النجم من ليالى الشتاء، وفى عطلة الميلاد كان البهو الذى عند مدخل بيت آل فيرفاكس الواسع مكسواً بالخضرة ومضاء بكثير من الشمع ، استعداداً لحفلة رقص تقام فيه . فلما عزفت الموسيقى ببداية الرقص انحنى الرجال وقد ارتدوا حللا من الأطلس، أمام السيدات اللاتى اختاروهن للرقص معهن، على حين وقف جورج بالباب يشاهد الجميع وهم يرقصون .

وكان لورانس وزوجته « آن » أول من نزل إلى المرقص وتلاهما جورج فيرفاكس– أخو آن – وخطيبته سالى كارى، الحسناء الفاتنة، وكانت ترتدى ثوباً قرنفلى اللون ، ورشقت فى شعرها الأسمر وردة ، فبدت أروع فتاة وقع عليها نظر جورج . ولما لمح أختها الصغرى تمنى أن يدعوها للرقص معه، ولكنه تردد فلم يجسر ، ثم عاد وتشجع ودعاها فلبت طلبه، على أنه لم يلبث أن ندم على مافعل

وتمنى أن لم يفعل ، لأنها دأبت تذكّره أكثر مما ينبغى بحبه لفتاة تعرف باسم « اولاند بيوتى » هجرته هجراناً غير حميد حطم فؤاده . ولكن الأمر قد خرج من يده ، ولم يعد يستطيع أن يهرب من الرقص معها ، فأخذ يدها واستبقاها مرفوعة ، ووجه كل همه إلى الرقص لا إليها نفسها .

وقال السير ويليام وهو يتحدث إلى اللورد فيرفاكس « ان جورج الصغير هذا فتى حسن السلوك لولا أنه مع الأسف حيي خجول من النساء » .

فقال ابن عمه الشيخ العجوز النحيل : « لا ! لا ! ان ذلك لينسيه الكثير من دواعى الحزن » .

قال ذلك اللورد فيرفاكس والتأثر باد على وجهه . فالشائع بين الناس أنه إنما جاء إلى أمريكا كى ينسى حبه لسيدة حسناء قست عليه كل القسوة ، فحضر إلى هنا ليدفن نفسه مع كتبه فى البرّية وعزم على أن يبنى له داراً ومستقراً فى أراضيه التى تقع وراء سلسلة جبال البلو ريدج . فهو لم ينزل عند ابن عمه إلا ريثما يتم بناء داره .

هذا وقد ازداد حبه السريع لجورج قوة على مر الأيام والشهور ، فقد أعجب بالأسلوب الذى يمتطى به جورج حصانه ، وبالطريقة التى يعالج بها شئون كلاب الصيد عندما تخرج الجماعة للقنص والطراد . كما أنه أحب فيه رزانته واستقامته مع من هم أسن منه ، وأعجب بدقته التى يلتزمها فى كل ما يقوم به من أعمال المساحة

فهو يقيس لك حوضاً لزراعة الكرنب ، بالعناية نفسها التى يراعيها عندما يخطط طريقاً عاماً باسم الملك .

فسأله ذات يوم : « ما رأيك فى أن تقوم لى ببعض أعمال فى مسح الأراضى ؟ » ثم جعل يشرح له الأمر ، قبل أن يستعيد جورج أنفاسه المبهورة التى اضطربت من شدة ابتهاجه بما سمع .

وكان معظم الخمسة الملايين من الأفدنة التى يملكها غابات بدائية غير مزروعة ، ولم يسبق أن قام أحد بمسحها ، فهى ليست سوى أراض من أراضى الهنود ؛ فان شاء صاحبها أن يبيعها مزارع وجب عليه أن يخططها أولا ويرسم لها حدودها ويحدد معالمها . وعلى هذا نراه اتخذ منذ أوائل شهر مارس العدة لإرسال جماعة من المساحين ليقوموا بمسحها .

وكان من بين هؤلاء جورج فيرفاكس أخو آن الذى يكبر جورج واشنجطن بثمانى سنين ، ومنهم مساح آخر من ذوى الخبرة والتجارب ، ثم جورج نفسه . وقال اللورد : ذلك إذا رضى جورج بالذهاب معهما .

إذا رضى بالذهاب معهما ! هو ؟ ان هذه هى الفرصة التى كان يترقبها ليرى هذه الأراضى الجديدة ، ويقوم بمسحها ثم ينتقى منها لنفسه قطعة طيبة يشتريها عندما يدخر المال الكافى . انه لا يكاد يصبر حتى يبدأ العمل .

وعزم أن يكتب مذكرات يومية عن كل شىء يراه . وكانت عنده كراسة جديدة تكاد تكون بيضاء كلها ، إذ لم يخط فى صفحاتها

الأولى سوى بضع مقطوعات شعرية غزلية حاول أن ينظمها ويشبب فيها بحبيبته السابقة « لولاند بيوتى » وباثنتين غيرها من الفتيات القاسيات القلوب . ولكنه لم يعد يحفل بهن الآن . . فقد اندمل قلبه الجريح — ذلك القلب الفتىّ الذى لم يتعد صاحبه الخامسة عشرة بعد . هذا إلى أن لديه الآن أموراً أخرى تشغل باله ويُعنى بالتفكير فيها وبكتابتها — وأهمها رحلته الثانية عبر الجبال ، وهى أول رحلة يقوم بها لأعمال تختص بالمساحة ، وتعد أول مغامرة له فى مجاهل البرية.

يوميات جورج

منذ يوم الجمعة الحادى عشر من شهر مارس سنة ١٧٤٨ شرع جورج يدون مذكراته كل يوم . . ففى صباح هذا اليوم قام مع جورج فيرفاكس على جواديهما وبدآ رحلتهما . وكانت حقول التبغ الواسعة، وبساتين الكريز الزاهرة تتجلى لهما على كل جانب فى بداية الرحلة . وكلما سارا غرباً أخذت المزارع تقل شيئاً فشيئاً حتى اختفت فى ثنايا الغابات الكثيفة المترامية الأطراف .

وما أن بزغت شمس اليوم التالى حتى كانا قد قطعا أربعين ميلا، ثم صادفا فى طريقهما المستر جين، كبير المساحين؛ فساروا جميعاً يتسلقون الجبال طيلة هذا اليوم كله حتى بلغوا ذروة جبال البلوريدج بعد الظهر ومن تحتهم وادى شناندوا الجميل منبسطاً أمامهم، ورأوا النهر ينثنى فيه أمامهم واضحاً جلياً . وعند الأفق، على مدى البصر، رأوا جبال الألليجانى تقوم عالية دكناء . على أن جورج لم يكن معنياً وقتئذ بالتأمل فى المناظر الطبيعية؛ فقد كان متعباً جائعاً . ولم يكن يشغله سوى المسافة الباقية لهم ليصلوا إلى النهر وإلى الفندق القريب .

وفى اليوم التالى ، وهم يسيرون صوب منبع النهر متجهين إلى كوخ الصيد الذى يملكه اللورد فيرفاكس ، أعجب جورج كل الإعجاب بما وقع عليه بصره من أشجار الاسفندان، ومن خصب الأراضى الجديدة التى أصلحها المستوطنون الجدد، وزرعوها قمحاً وتبغاً .

وكان يوم الثلاثاء أول يوم قضوه فى مسح الأراضى؛ ففيه

وصلوا إلى ما يسمونه « المارشز » وظلوا يعملون بجد اليوم كله . ولو لم يكن جورج متعباً لما فكر فى أن ينام طيلة هذه الليلة التى هى أول ليلة يقضيها فى كوخ رائد من رواد الغابات .

ولما لم يكن خبيراً بالأحوال فى الغابات ، مثل زميليه ، فقد خلع ملابسه كما اعتاد ، وقال فى يومياته « ومضيت إلى ما يسمونه فراشاً ، فدهشت إذ لم أجده سوى قليل من القش المتلبد العارى ؛ لا ملاءة عليه ولا شيء سوى ملحفة بالية تحمل فى طياتها ضعف وزنها من القمل والبراغيث » . وعندئذ قفز جورج من مكانه وسارع إلى ارتداء ملابسه . ثم دأب منذ ذلك الحين على أن ينام مع زميليه على الأرض أمام الموقد متدثراً بملحفته .

وفى يوم الجمعة ، كان قد مضى عليهم أسبوع كامل ، ووصلوا إلى أحد روافد نهر البوتوماك ، فوجدوه زاخراً بالثلوج الذائبة المنحدرة من سفوح الجبال ، فاضطروا عندئذ أن يدفعوا بخيولهم وسط النهر حتى تعبره عائمة إلى بر ماريلاند . ومنها اتجهوا صوب مركز تجارى للهنود « يسيرون على أسوأ طريق وطأته أقدام إنسان أو حيوان » ، تعوقهم الأشجار الساقطة التى تراكمت عليها الأغصان ، والشجيرات المبللة بمياه الأمطار ، فقد ظلت السماء تهمى ثلاثة أيام متوالية .

ثم صفت السماء فى الساعة الثانية من يوم الأربعاء ، فرأوا جمعاً من الهنود عائدين من الحرب ، ويبلغون الثلاثين رجلا ، ولكن لم يكن معهم سوى فروة رأس واحدة . وبعد أن شرب

الهنود شيئاً من الخمر — « الروم » — ثملوا واندفعوا يرقصون رقصة الحرب عندهم . . وكتب جورج يقول : « وطريقتهم فى الرقص أنهم يُعدون حلقة كبيرة ويشعلون وسطها ناراً متأججة ثم يجلسون حولها ؛ ويأخذ أمهر راقص فيهم فى الرقص ، يتبعه سائر الهنود فيقفز ويجرى ، ويثب حول الحلقة بشكل يدعو إلى الضحك . . ولم يكن لديهم من الآلات الموسيقية سوى جرة من جرار الماء يُسط عليها جلد غزال ، ويقطينة ربطت فيها قطعة من ذيل فرس ، وفى داخلها قليل من الرصاص ، حتى إذا أجيلت أحدث الرصاص أصواتاً . فكان أحدهم يجيل اليقطينة والآخر يطبل ، والباقون يرقصون » .

وهكذا قضوا يوم الخميس كله فى مشاهدة هؤلاء الهنود الحمر المدهشين ، وفى التحدث إليهم .

وقضوا الأسبوعين التاليين يعملون باستمرار فى مسح الأراضى . وكانوا ينجزون خمسمائة فدان أو أكثر فى اليوم ، ثم يقضون الليل فى خيمتهم ، ويعيشون على الديكة الرومية البرية التى يصطادونها ، ثم يشوونها على نار مكشوفة . وذات ليلة اشتعلت النار فى القش الذى تحتهم وهم نيام ؛ وحدث مرتين أو أكثر ، أن اقتلعت الريح الهوجاء خيمتهم . وفى يوم الأحد العاشر من أبريل أخذوا أهبتهم للرحيل فقوضوا الخيمة وحزموها وركبوا جيادهم ميممين شطر جبال البلو ريدج . وكتب جورج يقول « وفى يوم الأربعاء الثالث عشر من أبريل سنة ١٧٤٨ وصل المستر فيرفاكس إلى منزله سالماً ، وكذلك وصلت إلى إخوتى . وكان هذا ختام يومياتى »

لورانس يغادر ماونت فرنون

فى أصيل يوم قائظ من أيام الصيف، اجتمع أفراد الأسرة فى ركن ظليل فى ماونت فرنون ليلعبوا دستاً من الورق . ولما جاء دور لورانس واشنجطن لتوزيع الورق على اللاعبين خلطه بعضه ببعض ، ووزع ورقة على كل من أوستن وجورج ، وجورج فيرفاكس ، ثم ألقى بحزمة الورق على المائدة . فقد رأى نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأنه يشعر أن حالته الصحية لا تساعده على الاستمرار فى اللعب .

فتضايق جورج وخاب أمله ، فقد أحس أنه أخذ يتعلم اللعبة بسرعة ، وكان الحظ حليفه فى الغالب الأغلب ، لا فى اللعب وحده بل فى عمله أيضاً بوصفه مساح أراض .

وانهمك جورج طيلة فصل الربيع فى الاشتراك فى مسح مدينة الاسكندرية الجديدة وتخطيطها . وهى وتقع على بعد ثمانية أميال من ماونت فرنون على نهر البوتوماك . وفى هذا اليوم من شهر يولية أنجز جورج ما عليه من العمل ، وتمت جميع الاستعدادات لبيع القطع فى مزاد علنى؛ واعتزم لورانس أن يحضر هذا المزاد فى اليوم التالى .

ولما نهض لورانس من المائدة كان وجهه ممتقع اللون . ولم يكن أحد يدرى مدى شدة المرض الذى يشكو منه . فمع أن سنه لم تزد على الحادية والثلاثين لم يكن أمامه سوى ثلاث سنين أخرى من حياته .

وفى هذه السنوات الثلاث كان جورج يتقدم باستمرار إلى الأمام . ففى الربيع اعتمده أولو الأمر مساحاً عاماً ، وعاد ليقوم ببعض عمليـــات مساحية للورد فيرفاكس فى ما وراء جبـــال البلوريدج . ولما كان يحصل على أجر طيب من عمله فقد حرص كل الحرص على أن يدخر ما يكسبه من الأموال كى يشترى بها ما يستطيع شراءه من الأراضى . ففى الربيع ،وقد بلغ الثامنة عشرة ، صار عنده من المال ما يكفى لشراء أول مزرعة له ، وكانت مساحتها ألف فدان ؛ ثم اشترى مزرعة أخرى غيرها مساحتها أربعمائة وستة وخمسون فداناً ، وذلك قبيل عيد الميلاد عندما ذهب لزيارة أمه والأولاد فى رفرى فارم ، ولزيارة بيتى فى فردريكسبورج ؛ وكانت بيتى قد تزوجت من المستر لويس .

أما فى ماونت فرنون فقد أخذت صحة لورانس تسوء يوماً بعد يوم . وخطر له أن يقوم برحلة إلى جزائر الهند الغربية علّه يستعيد فيها صحته ويسترد عافيته ؛ على أن « آن » لم تستطع أن تذهب معه فى هذه الرحلة من أجل طفلتها الجديدة . فهل يرضى جورج أن يكف ولو لبضعة شهور عن عمله كمساح ليذهب معه يا ترى ؟ إنه لاشك يود أن يقوم بأى عمل فى سبيل أن يرى أخاه يسترد صحته

فسافرا معاً من نهر البوتومالك . وبعد أن قضيا شهراً فى البحر نزلا من جزيرة باربادوس المدارية الخضراء . وكان جورج يدون مذكرات عن كل شىء يشاهده ... فجزيرة باربادوس هذه غنية بقصب السكر وبالأناناس ، وعلى الرغم من الشمس ، ومن نسيم البحر

فان صحة لورانس لم تستفد شيئاً منها مع الأسف . ذلك إلى أن جورج أصيب بالجدرى ، فعاد من هذه الرحلة البحرية الوحيدة فى حياته مشوه الوجه إلى الأبد من آثار هذا المرض .

ولما عاد لورانس إلى بيته أدرك أن أجله لن يطول ، فتوفى فى صيف سنة ١٧٥٢ . وكان قد كتب فى وصيته أنه قد خصص قسما كبيراً من أملاكه لأخيه جورج ، كما خصه بمنزله الجميل فى مزرعة ماونت فرنون .

حرب الفرنسيين والهنود

وقف الصاغ جورج واشنجطن الشاب أمام الحاكم فى قصره فى مدينة وليامزبرج . وكان جورج قد طالت قامته حتى أربت على الستة أقدام، وكان مر تدياً بذلة عسكرية زرقاء من طراز مايلبسه جنود فرجينيا .

وكان مع الحاكم خطاب ، فوقعه وطواه. وسأل جورج وهو يسلمه هذا الخطاب : متى تبدأ رحلتك ؟

فأجاب جورج : « اليوم يا سيدى » . وما أسرع ما امتطى جواده وانطلق به تاركاً وليامزبرج .

كان ذلك فى صباح الثلاثين من أكتوبر سنة ١٧٥٣ . وكان جورج فى الحادية والعشرين من عمره فخوراً بأن يثق به الحاكم ويعهد إليه بمثل هذه المهمة الخطيرة التى سعى إليها بنفسه ونال شرف القيام بها . وعقد عزمه على أن ينجح فيها على الرغم من أنه لم يكن أمامه دليل يهديه السبيل إلى الشمال الغربى المحفوف بالمكاره والأخطار سوى أثر غامض محيل .

فقد كان عليه أن يسلم الخطاب الذى معه إلى قائد حصن فرنسى فى مكان ما عند نهر الأوهايو . ولم يكن الحاكم نفسه يدرى أين هذا المكان على وجه التحديد . وكل ما يعلمه أن الفرنسيين هبطوا من الشمال ونزلوا فى أراض يملكها الانجليز . وهى الأراضى التى سبق أن منحها الملك شركة الأوهايو . وكان لذلك دلالة خاصة



جورج واشنجطن (إلى اليمين) وكريستوفر جست (الدليل)
يعبران نهر الاليجانى

فى نظر جورج . فقد كان أخوه لورانس رئيس هذه الشركة عندما مُنحت تلك الأراضى ، وكان فى عزمها قبل وفاة لورانس أن تقيم فيها حصناً يحميها غارات الفرنسيين ؛ ولكنها لم تفعل ، فقد سبقها الفرنسيون واستقروا فى تلك الأراضى فعلا .

وكان الخطاب الذى يحمله جورج ليسلمه إلى الحاكم الفرنسى ، خطاباً حازماً رغم صياغته فى قالب رقيق . ففيه يطلب من الحاكم الفرنسى أن يرحل عن هذه الأراضى . وفضلا عن تسليم هذه الرسالة ، كان على جورج أن يعرف عدد الجنود الذين عند الحاكم ، وعدد ما بناه الفرنسيون من حصون ، وعدد قبائل الهنود الحمر الموالين لهم .

وكان ، وهو على صهوة جواده ، يفكر فيما يلزمه من الأسلحة والذخيرة والخيام و «البوصلات» ، وعلف الخيل ، وصنوف الهدايا التى تقدم إلى الهنود الحمر ، وفيما لا بد له من الأدلاء والمترجمين . ولما وصل فردريكسبورج لبث فيها برهة ليزور أمه ويودعها ؛ ذلك إلى أنه وجد فى المدينة رجلا زعم أنه يحسن الكلام باللغة الفرنسية ، فأستأجره .

ومن غير أن يضيع وقتاً ما أسرع إلى جبال البلوريدج ، وواصل السير هو والمترجم عشرة أيام حتى بلغا أبعد نقطة كان جورج قد وصل إليها من قبل فى الغابات ، فشعر أن لا بد له بعدها من دليل يرشده إلى الطريق التى ينبغى له أن يسلكها . فصادف رجلا فى محلة صغيرة تبدو عليه مخايل النباهة والذكاء اسمه كريستوفر

جِست ؛ فاستأجره ؛ كما استأجر كذلك أربعة من رجال الغابات ، اثنان منهم يعرفان لغات الهنود ؛ وقاموا جميعاً متجهين نحو قرية هاف كنج عند نهر الأوهايو . وهاف كنج هذا ، زعيم هندىّ مشهور. وبينا هم فى الطريق علموا أن ثلاثاً من قبا ئل الهنود انضمت إلى الفرنسيين . فما عسى أن يكون موقف هاف كنج هذا ؟ أصديق هو أم عدو يا ترى ؟

وقبل أن تتضح لهم جلية الأمر بلغوا موضعاً لا يبعد عن القرية الهندية ، وحيث يلتقى عنده رافدان يكونان نهر الأوهايو . فعكف جورج يفحص المكان بعناية وحرص (وهو الذى ستنشأ فيه فيما بعد مدينة بتسبرج) ، الذى كانت تعتزم شركة الأوهايو أن تقيم فيها حصنها .

ولوحظ أن هاف كنج كان غاضباً على الفرنسيين كل الغضب ؛ فهذه الأراضى أراضيه هو ، كما يقول ، على حين أن الفرنسيين قالوا له إنها أرضهم . . وكان هذا كذباً واضحاً ، فهذه الأرض لم تكن لأحد من البيض قط . . انها أرض هندية . وكان جورج يصغى باهتمام إلى ما يسمع . وكذلك كان حريصاً كل الحرص . وانتظر حتى وافق هاف كنج وثلاثة من رجاله الأشداء على أن يصحبوه إلى حصن الفرنسيين .

وظل جورج ومن معه يسيرون خلف الهنود الحمر أربعة أيام متوالية ، إلى أن عثروا بمتجر رُفع عليه العلم الفرنسى الأبيض الجميل المطرز برسوم السوسن المذهب . وكان يحرسه رجل هجين



جورج واشنجطن ، وزميلان له
عندما ذهبا إلى الحاكم الفرنسى فى أراضى وهايو
سنة ١٧٥٣ ليسلما له رسالة خاصة
لقد قطع واشنجطن ستمائة ميل فى أراض مليئة بالغابات والأنهار

بين هندى وفرنسى ، قال لهم إن الحصن يقع على بعد خمسين ميلا . وأردف قوله هذا بأن الانجليزى على خطأ مبين ، ان كان يظن أن الفرنسيين سيرحلون عن هذه الأراضي . لا ! فالأرض أرضهم ، فجميع الأوهايو وأراضى وادى المسيسبي كلها أرضهم ، فقد استكشفها «لاسال» الرائد الفرنسي منذ عشر سنين وهذا هو عين ما سيسمعه من الحاكم الفرنسي رئيسه . !.

استقبل الحاكم الفرنسي الصاغ واشنجطن استقبالا طيباً ، وتسلم منه باحترام الخطاب الرقيق الذى حمله إليه من الحاكم الانجليزى ، والذى يطلب منه فيه أن يرحل عن هذه البلاد . ثم كتب رده بأسلوب رقيق كذلك ، يقول له فيه لا ! لن أرحل .

ثم تسلم واشنجطن هذا الخطاب ليعود به إلى الحاكم الانجليزى . وكانت عودته كلها كفاحاً ضد البرد والزمهرير . فقد كانت فى شهر ديسمبر ، والأرض مكسوة بالثلوج ، والخيل مجهدة منهوكة القوى ؛ وكى يصلوا بسرعة إلى غايتهم اقترح واشنجطن أن يربط هو وزميله جست ما يحتاجان إليه على ظهريهما ويسيرا فى طريقهما ؛ فواجها الموت مرتين وهما يحاولان عبور نهر يكاد يكون جمَدا كله . فسقط جورج من الرمث وكاد أن يغرق . هذا ، وقد أطلق عليهما أحد الأدلاء الهنود الرصاص ، ولكنهما ظلا يسيران قُدماً على الرغم من ذلك كله .

وفى السادس عشر من يناير بلغ واشنجطن مدينة وليامزبرج ، فدهش الحاكم كل الدهشة أن يرى واشنجطن ماثلا أمامه ؛ ولكنه

اغتبط بوصوله كل الاغتباط ؛ فقد أصبح فى يده الآن تقرير عن أراضى الأوهايو ، ورسمٌ للحصن الفرنسى ، وخطاب من الحاكم الفرنسى كذلك .

أما الرحلة الثانية التى قام بها واشنجطن إلى بلاد الأوهايو فى الربيع فلم تكن موفقة التوفيق الذى صادفه فى رحلته الأولى . فقد قام هذه المرة ، ومعه ، بأمر الحاكم العام ، عدد من الجند ، وليس خطاب فحسب . وذلك أن الفرجينيين كانوا قد اعتزموا فى الشهور السابقة على ذلك أن يبنوا حصناً لهم فى تلك المنطقة عند قرية هاف كنج . ولكن قبل أن يرسلوا قواعد كتل الخشب الجديدة ليضعوها فى مواضعها كان الفرنسيون قد استولوا على موقع الحصن ، ولم يبق أمام الانجليز سوى أن يعملوا على طردهم منه بالقوة .

فعند منتصف الطريق فى « جريت ميدو » أقام جورج معسكره فى بقعة تحيط بها التلال والربى ، وأنشأ بجانب المعسكر حصناً مؤقتاً . ولكن اختيار هذا المرعى المكشوف لإقامة المعسكر فيه ، كان اختياراً سيئاً أخرق . فجورج لم يكن قد تدرب التدريب العسكرى ، وعليه أن يتعلم الآن من أخطائه .

وذات ليلة مطيرة فى شهر مايو حضر إلى المعسكر عدّاء هندى يحمل رسالة من هاف كنج ، يقول فيها إن الفرنسيين على مقربة منهم ، فقد رأى هاف كنج آثار أقدامهم ، ويقدر عددهم بثلاثين رجلا أو يزيدون .

فخطر ببال واشنجطن أنهم لابد أن يكونوا جواسيس ، وأن

الفرنسيين قد اعتزموا أن يأخذوهم على غرة . فأسرع إلى العمل ولم يضيع لحظة واحدة . فاختار أربعين رجلا من رجاله ، وساروا الليل كله يقودهم الهندى ، فجعلوا يشقون الغابات المغمورة بالمياه . وبعد قليل انضم إليهم هاف كنج نفسه . وعند الفجر وقف الهندى وأشار إلى حفرة فى الأرض وقال « الفرنسيون هنا » .

وفى الحال أصدر واشنجطن أمره باطلاق النار . فلأول مرة فى حياته سمع الرصاص يئز وهو مار بجانب أذنيه ، لما هب الفرنسيون إلى بنادقهم . ولكن الفرصة قد ضاعت عليهم ، إذ قتل قائدهم وعشرة من جنوده وأسر العشرون الباقون ، مما ملأ واشنجطن غبطة وسروراً .

كانت تلك أول معركة خاضها فى حياته ، وكان فوزه فيها باهراً ؛ على أن سروره بهذا الفوز لم يلبث طويلا . ففى الثالث من شهر يونية جاء خمسمائة فرنسى ثائرين ، ومعهم كثير من الجنود الحمر كى يهاجموا واشنجطن ومن معه ، ويأخذوا بثأر زملائهم القتلى ، وقالوا ان الرجال الذين قتلوا أو أسروا إنما كانوا يحملون رسالة إلى الحاكم الانجليزى .

وكان اليوم الذى حدثت فيه هذه المعركة الثانية يوماً عبوساً مطيراً ، وكان عدد الرجال الذين مع واشنجطن فى حصنه المسكين غير المحمى ، فى جريت ميدوز ، أقل من نصف عدد الفرنسيين الذين يهاجمونه ؛ وزيادة على ذلك فقد خذله هاف كنج والهنود الذين معه . فهاف كنج هذا لم يكن راغباً فى أن يخاطر ويقع أسيراً فى

أيدى البيض ، فجرى إلى التلال والربى والتجأ إليها . فحسبه أن يشاهد المعركة ويرى ما تسفر عنه .

وصمد رجال واشنجطن ما استطاعوا أن يصمدوا على الرغم من كل ما عانوه،وظلوا محتفظين بشجاعتهم ، ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى الاستسلام عند الغروب . فعلى ضوء شمعة خفاقة وسط الريح قرأ المترجم الفرنسى ورقة عرضها الفرنسيون على جورج واشنجطن كى يوقعها،وهى تنص على أن يعيد واشنجطن الأسرى الفرنسيين ، ويتعهد بألا يعود إلى هذه الأراضى قبل مضى سنة أخرى ، فوقعها مضطراً فى وجوم واكتئاب . وبعد توقيعها سمح له فى اليوم التالى بمغادرة الحصن هو وجنوده محتفظين بشرفهم العسكرى . فرجع إلى فرجينيا ، وقد أفسدت عليه هذه الهزيمة صفو سروره بما سبق أن حازه من انتصار .

وزيادة على ما كان فيه من ضيق وابتئاس نزل به مرض اضطره إلى ملازمة الفراش فى ماونت فرنون عدة أسابيع .

وفى خلال تلك المدة وصلت إلى انجلترا عدة صور من تلك الوثيقة التى وقعها ، وعندئذ رأى ملك الانجليز أن الوقت حان لأن يرسل حملة من الجند إلى أمريكا لحسم ذلك النزاع خشية أن يتطور إلى حرب ضد الفرنسيين وحلفائهم من الهنود .

ففى الصيف التالى جاء الجنرال برادوك من انجلترا ليتولى قيادة الجند، وعمل واشنجطن تحت قيادته ، ولكنه كلف مأمورية أخرى تهدف إلى الاستيلاء على الحصن القائم عند نهر الأوهايو

وإذ كان مريضاً ولا يستطيع أن يمتطي جواده اضطر أن يركب إحدى العربات التي تنقل العتاد الحربي ويبقى فيها راقداً على ظهره ، فظلت تهزه هزاً عنيفاً ، وظل هو يتحسر على الوقت الذي أضاعه الجنرال الانجليزي .

فقد كان الجنرال برادوك قائداً مسناً كثير الحنكة والدراية ، ولكن جنوده المدربين لم تكن لهم خبرة إلا بالمواقع التي حدثت في أوروبا ، ولم يحدث أن شاهدوا معركة من تلك المعارك التي تحدث في البرية . فلم يسمعوا قط عن صرخات الحروب الهندية الوحشية ، ولم يعرفوا قط كيف أن الهندي الختال يظل يزحف ويزحف حتى ينقض على غريمه .

هذا ،وقد تلقى الانجليز أول درس مرير لهم في شهر يوليه ، فبينا هم يسيرون في طريق ضيقة وسط الغابات مرتدين حللهم القرمزية الجميلة ، وغير بعيد عن الحصن ، إذا بصرخة وحشية تدوي في الجو وتصك أسماعهم ،وإذا بالرصاص ينهال عليهم من كل صوب من غير أن يروا أمامهم عدواً يناجزهم ويناجزونه . فاستولى عليهم الفزع وركبهم من الذعر ما ركبهم وأشاع الاضطراب في صفوفهم ؛ واندفع الجنرال برادوك وسط هذا الحشد المضطرب الجائش شاهراً سيفه ، ويصيح في جنوده المذعورين ، محاولا ضبطهم وإعادة رباطة جأشهم إلى نفوسهم. ومع أن واشنجطن كان لا يزال يعاني الكثير من وعكة الحمى ، فانه اندفع بجواده وسط

الخطر ، والرصاص يدوّى حوله ، ويخترق أكمام قميصه ، ويقتل حصانه ، فيسارع إلى ركوب غيره ؛ وظل يتجه إلى هذه الناحية ، ثم إلى تلك حتى استطاع أن يلم شعث الجيش ويضم صفوفه .

ومع ذلك كله فقد خسروا الموقعة ، وجرح القائد برادوك نفسه ، واشترك واشنجطن فى نقله من ساحة القتال على محفة اصطنعها من منطقته القرمزية . وبعد عشرة أيام توفى متأثراً بجراحاته ، فدفنوه فى الطريق حتى يظل تحت آثار العربات العائدة بالعتاد والأمتعة بعيداً عن عيون الهنود الحمر الذين يتصيدون فروات الرءوس .

وبعد مضى سنتين قام جورج واشنجطن سنة ١٧٥٨ برحلة أخيرة مع الجنود الانجليز إلى حصن أوهايو . وما أن اقتربوا من الحصن حتى بادر الفرنسيون إلى إشعال النار فيه ثم ارتحلوا عنه . وأخيراً رأى واشنجطن ذلك الحصن يذهب طعمة للنيران — ذلك الحصن الخشبي القائم فى البرية ، والذى به بدأت حرب الفرنسيين والهنود .

وقد أدى ذلك إلى أن يخسر الفرنسيون جميع ما فى أيديهم من أراض وحصون فى شمال أمريكا فى نهاية الحرب . ومع أن جورج لم يشترك فيها فقد عمل لنفسه اسما طيباً . ففى اجتماع للمجلس فى وليامزبرج نوّه الرئيس به وأشاد بعمله ، قال :

أود أن أهنىء بطلنا الفرچينى على شجاعته وحسن سلوكه من

بداية الأعمال التى قام بها الفرنسيون ومن حالفهم من الهنود إلى وقت الاستيلاء على الحصن .

وحاول واشنجطن أن يرد على هذه التحية ويجيب عما سمع ، فارتج عليه وحُصر . وعندئذ قال رئيس المجلس كى يعفيه من الكلام : إجلس ياسيد واشنجطن ، فتواضعك يعادل شجاعتك قيمة ومقداراً . . وهذا فى نفسه يفوق قوة أية لغة فى نظرى .

جورج ومارثا

ذات يوم ناضر من أيام الربيع ، كانت عربة من عربات السفر تجرى فى الطريق العام وسط الخضرة الناضرة،تجرها جياد مطهمة فارهة ، ويسوقها حوذى يرتدى بذلة مزركشة ، فعرجت نحو الباب ثم اندفعت تجرى فى طريق العربات حتى وقفت أمام ماونت فرنون. فأسرع السائق إلى النزول وفتح باب العربة فبرز منها جورج واشنطن .

وتلفت خلفه ، ورفع ابنة صغيرة ، عليها قبعة مستديرة ترفرف عليها ريشة من ريش النعام . ثم لبث هنيهة حتى نزل طفل صغير من العربة ، فقدم ذراعه لخير من فى العربة ــ وكانت امرأته .

فنزلت منها ، وكانت لابسة حذاء مستدقاً ، وإزارا أسمر اللون تسمع له حفيفاً ، وعلى رأسها قبعة من « التفتاه » . ولما وقفت بجانب زوجها بدت نحيلة قصيرة القامة ، لاتكاد تبلغ مستوى كتفيه ؛ ثم ألقت نظرة على المنزل فبدت على ملامحها السرور وقالت : هذا إذن ماونت فرنون ؟

وهكذا استقروا جميعاً فى المنزل ــ جورج واشنجطن وأسرته الجديدة : باتسى ، وجاكى ، وأمهما التى كانت قبل السادس من يناير سنة ١٧٥٩ السيدة مارثا كوستيس أغنى أرملة شابة فى المستعمرة كلها ، ثم صارت مارثا واشنجطن . وبعد حفلة العرس ــ وكانت حفلة شائقة روعيت فيها كل الأساليب الحديثة ــ مضيا معاً إلى

مدينة وليامز برج لقضاء بقية الشتاء فاستمتعا بكل ضروب التسلية واللهو التى فى هذه المدينة الصغيرة المرحة — عاصمة المستعمرة .

أما الآن ، وقد حل الربيع فقد رجعا إلى بيتهما ؛ وكان الباب مفتوحاً لها على مصراعيه ، واصطف فى مدخل الدار جمع من الخدم لاستقبال سيدتهم الجديدة وللترحيب بها . وما لبثت مارثا أن مرت بحجرات البيت وأبدت سرورها بما شاهدت ، وأظهرت رغبتها فى إدخال تعديلات على المنزل فى بعض نواحيه .

وكان من رأى جورج أن رف الموقد الذى فى البهو الغربى يبدو أجمل مع المنظر الطبيعى وتمثال يوليوس قيصر النصفى الذى أوصى بعمله فى بلاد الانجليز .

وكانت حجرات النوم التى فى الدور الثانى لاتزال تفوح منها رائحة ورق الحائط الذى ألصق على جدرانها حديثاً ؛ كما كانت تفوح منها كذلك رائحة الخشب المطلى حديثاً أيضاً ؛ فان سُقُف المنزل قد أزيلت ، وأضيف إليه نصف دور جديد . قال جورج لمارثا ، ان الذى أشرف على تجديد البيت هو الكولونيل جورج فيرفاكس الذى يقطن على مقربة من ماونت فرنون ؛ فقد كان جورج غائباً عن البلدة . ثم أطلا من النوافذ الشرقية على نهر البوتوماك فرأيا رجلا فى مركب صيد يجمع « المحار » ثم هبطا إلى الدور الأول لتناول الغداء . وبعد الفراغ منه طلب جاكى من زوج أمه الرائع أن يشرح له الطريقة التى يستطيع بها أن يكسر الجوز بأصابعه .

وخارج البيت توجد مرافق شتى مثل المطبخ ، ومكان لغزل

الصوف ، وحجرات الخدم . فقضت مارثا ليلتها هذه فى السرير العالى ذى الأربعة الأعمدة وهى مغتبطة راضية لا تشعر بشىء من وحشة الغربة . وتبددت فى اليوم التالى ، وقد أخذت معها أشغال الإبرة وفتحت حقائبها ، كأنها كانت تعيش فى ماونت فرنون طيلة حياتها .

أخذ واشنجطن يتعلم الزراعة . فاستقبل صيفاً مليئاً بالأعمال . فهو يحب الأرض وزراعتها ، ويحب رائحتها ، ويطيب له ملمسها ويعجبه أن يرى أخاديد الأرض السوداء التى يحدثها المحراث . وثم صفوف مستقيمة من شجيرات التبغ الصغار وأوراق طويلة سمراء تجفف فى الحظائر الخاصة بذلك ، وأكوام من الدريس ، وحقول واسعة حافلة بالقمح حلت محل الأراضى المكسوة بالغابات والأحراج .

وكان واشنجطن يعمل دائماً على أن يؤدى كل ما يقوم به من أعمال خير أداء وأحسنه ، ولم يشذ عن ذلك عمله فى الزراعة . فاجتهد أن يعرف خير المزروعات وأنسبها بالأرض ، وخير طريقة لإنمائها نمواً حسناً . وكان يدون حساباته بدقة ، ويحتفظ بمذكرات صحيحة عن كل شىء يعمله ، فهو ليس من أولئك الناس الذين يعملون شيئاً ما فى لهوجة وبدون إحكام .

فبينا مارثا مشغولة كل مساء برفو الجوارب ، أو بأشغال التريكو كان جورج يجلس إلى مكتبه يدوّن يومياته على ضوء الشمع ، فيذكر مثلا كيف قضى يومه ، وكيف كان الجو غائماً أو صحواً.

عاد جورج ذات مساء من مزرعة جديدة ، فوجد مارثا تشكو

من مرض الحصبة . وبعد أيام ذكر فى يومياته أن سالى فيرفاكس جاءت تعودها . ولما كان المساء بارداً ، والريح شديدة كلف السائق أن يُعد العربة ليوصل سالى إلى منزلها ، ولكن العربة لم تعد صباح الأحد فى الوقت الملائم ، فتعطلا عن الذهاب إلى الكنيسة فى الاسكندرية ؛ على أن جورج ركب ثانى يوم إلى تلك المدينة لاستئجار بستانى جديد وشراء « حمل » من الزبد .

ومضى ذات ليلة إلى مرقص فى الاسكندرية ، وكانت الموسيقى أهم تسلية فيه . وكذلك ذهب مرة لصيد البط ، وقنص الثعالب ، وصيد السمك المعروف بالرنجة فى موسم الصيد . وحاول مرة مع « بيير » الحداد أن يصنع محراثاً جديداً بحسب تصميم وضعه هو نفسه . وحدث أن ولدت كلبة ثمانية جراء فى المزرعة فسمى كل جرو منها اسما وطلاها بالدهن عندما أصابها الجرب .

وأرسل إلى المعصرة تفاحاً ، وإلى « المنشار » خشباً ، وصادف مرة فى طريقه زنجياً مريضاً فنقله إلى البيت ليعنى به العناية الكافية ؛ وزار أخته وأمه فى فردريكسبورج ، وساعد إخوته سام ، وجاك ، وتشارلى ؛ وغرس أشجار الصنوبر فى الربيع ، وطعم أشجار الخوخ والكريز ؛ وجرب آلة لزرع الشوفان والشعير ؛ وتغدى ومارثا عند جورج وسالى فيرفاكس ؛ ثم دعاهما فيما بعد إلى تناول الغداء فى ماونت فرنون .

وهكذا مرت الأيام والفصول والسنوات فى سعادة وهناءة حتى بلغت خمسة عشر عاماً ، ثم تلتها سنون أخرى كلها متاعب واضطرابات جاءت من الخارج .

الرعايا المخلصون وجورج الثالث

ترجع قصة هذه المتاعب ، وتلك الاضطرابات، إلى ليلة من ليالى شهر نوفمبر سنة ١٧٦٠ ، وهى السنة التى تلت عقد زواج واشنجطن على مارثا ؛ وكانت مدينة ويليامزبرج مرحة كعادتها لما فيها من فرق التمثيل ومجالس لعب الورق ، والمراقص الكثيرة ، على أنها كانت تلك الليلة من نوفمبر أشد مرحاً وأكثر سروراً . فقد وصلتها أنباء بأن ملكاً جديداً قد تبوأ عرش انجلترا ، هو الملك جورج الثالث؛ فما إن وصلت هذه الأخبار إلى مسامع مزارعى فرجينيا المخلصين حتى هتفوا بحياته وجعلوا يرقصون ويتغنون فى « مطعم رالى » ويصيحون عاش الملك !

وكذلك هتف الحاكم الملكى للمستعمرة وضيوفه المخلصون الذين كانوا يتغدون معه فى القصر : عاش الملك !

وشرب نخب الملك الجديد جورج الثالث الرعايا المخلصون له فى كل بيت من البيوت القائمة على حافتى الشارع العريض .

وكان جورج واشنجطن فى ذلك الوقت فى مدينة ويليامزبرج مع زوجته مارثا وطفليها ليحضر جلسات المجلس التشريعى إذ أنه انتخب هذه السنة لأول مرة عضواً فى ذلك المجلس .

وكان المألوف أن ملك الانجليز هو الذى يعين حاكم فرجينيا ؛ أما أعضاء المجلس فينتخبهم الشعب نفسه ؛ وكانوا هم الذين يقومون

بوضع القوانين التى تحكم بها المستعمرة . هكذا كانت الأمور تجرى على هذا المنوال .

ولكن الملك الجديد، جورج الثالث، كانت له آراء جديدة غير هذه . فلم تكد تمضى عليه مدة طويلة حتى صارت ترد من انجلترا قوانين جديدة غريبة لتطبق على أهالى المستعمرات فى أمريكا . وظلت هذه القوانين تزيد فى مضايقتهم وإحراجهم سنة بعد سنة ؛ وظل الأمر كذلك ومضايقتهم تزداد حتى صدر قانون جديد يعرف بقانون « الدمغة » . فذات يوم فى شهر مايو، قامت فى المجلس مناقشة حادة بشأن هذا القانون . وكان جورج واشنجطن جالساً فى مقعده كالمعتاد عندما دعا رئيس المجلس عضواً جديداً اسمه « باتريك هنرى » للكلام وإبداء الرأى .

فرأى جورج خلف المائدة الوسطى المغطاة بقماش من الجوخ الأخضر الزاهى، رجلا نحيل الجسم، طويل القامة، على رأسه شعر مستعار ، رآه يقف على قدميه فى بطء ورزانة ويضع على عينيه منظاراً ثم يأخذ فى إلقاء كلمته .

فقال باتريك هنرى فى صوت هادىء متزن :

«نحن أهالى هذه المستعمرة لسنا، بما لنا من حقوق، ملزمين باطاعة قانون الدمغة ، ولا ... ولا أى قانون آخر مثله لم يصدر بموافقة هذا المجلس » ثم اندفع يتكلم بسرعة وعلا صوته حتى سمع رناناً مؤثراً ... فلفت نظر الحكام من أمثال جورج الثالث الذين يدفعهم

حرصهم على الاستزادة من القوة والسلطان ، فيفقدون بذلك حياتهم . . وكذلك فان جورج الثالث . . . . »

وعندئذ هب رجل كان جالساً بجانب جورج واشنجطن ووقف على قدميه وصاح يا للخيانة ! ورد آخرون صيحته ، وكانوا متسرعين ومتهيجين مثله ونادوا خيانة ! خيانة !

أما واشنجطن فكان أحزم منهم وأسد رأياً ، فترك للمتكلم الفرصة العادلة حتى أتم كلامه ، الذى اختتمه بتحذير بسيط بأن الأولى بجورج الثالث أن يتعظ بما حصل لهؤلاء الحكام . ثم اقترح على الحاضرين أن يبعثوا إلى جلالة الملك ، بوصفهم رعايا مخلصين له ، خطاباً يحتجون فيه على قانون الدمغة هذا . فكان اقتراحاً معقولا فى نظر الأعضاء ، إلا أن حاكم المدينة الملكى عده منهم عملا عدائياً . ففض المجلس وأوصد أبواب الكابيتول .

ولم يلبث قانون الدمغة هذا أن أحدث اضطراباً كبيراً فى جميع المستعمرات الأمريكية ، فاضطرت انجلترا إلى سحبه ، ولكنها أصدرت قانوناً آخر غيره يُلزم مزارعى فرجينيا بدفع ضرائب شتى على كثير من الأشياء التى اعتادوا أن يشتروها من انجلترا مقايضة بتبغهم ، ففرضت ضريبة على الزجاج ، وأخرى على الألوان ، والأدهنة ، والأطباق ، ومواد البناء ، بل وعلى الشاى نفسه .

ولما كانت أبواب الكابيتول موصدة فى وجوه أعضاء مجلس المواطنين فقد استقر رأيهم على أن يجتمعوا فى مطعم رالى ليتداولوا الآراء فيما بينهم ، ويقفوا على ما ينبغى أن يعملوا . وعند افتتاح

الجلسة شوهد جورج واشنجطن ممسكاً ورقة فى يده، ثم وقف وقال :

« بيدى خطاب من فيلادلفيا يقول إن أهاليها اتفقوا على ألاّ يشتروا شيئاً من الأصناف المفروض عليها ضرائب إلاّ إذا رفعت هذه الضرائب عنها . وإنى أقترح عليكم أن تأخذوا بمثل هذا المثل الرائع الذى ضربه لكم أهالى فيلادلفيا، وتمتنعوا مثلهم عن الشراء » .

وتم الاتفاق على هذا ؛ ولم تلبث الأنباء أن جاءت بأن الأهالى فى مساشوستس وغيرها من المستعمرات عقدوا فيما بينهم اتفاقات مماثلة . فما عسى أن يحدث بعد ذلك يا ترى ؟

ورد الجواب عن هذا السؤال فى يوم اشتد برده من أيام الشتاء فى سنة ١٧٧٢ . ففى هذا اليوم وصل رسول من مطعم رالى، وهو يلهث من التعب ، يحمل أخباراً مثيرة حقاً من بوسطن . فقد وصلت إلى ميناء المدينة ثلاث سفن مشحونة شاياً ؛ وبدلا من أن ينزل العمال الشاى من هذه السفن إلى البر ، ويدفعوا الضرائب المفروضة عليه صعد إليها جماعة فى زى الهنود الحمر وألقوا بالشاى فى البحر . فلما رأى ذلك أولو الأمر ، سارعوا وقرروا إغلاق ميناء بوسطن عقاباً لأهلها على ما فعلوا ، وأرسلوا الجنود البريطانيين لينفذوا أمر الملك . وفى هذا الإغلاق عذاب كبير لأهالى بوسطن وإرهاق لهم .

فهب جورج واشنجطن وبادر إلى العمل فقال : إنى مستعد كل الاستعداد لتقديم جيش من ألف رجل على نفقتى الخاصة، وأمضى بهم للدفاع عن بوسطن .

وقام محام شاب اسمه « توماس جيفرسون » يقترح جعل اليوم

الذى فيه أغلقت ميناء بوسطن يوم صيام وصلاة فى مدينـــة ويلياميز برج .

حدث ذلك فى شهر يونيه سنة ١٧٧٤ ، وظل رجال المستعمرات المختلفة فى أمريكا على اتصال بعضهم ببعض عن طريق البريد . فبدا لهم أن الأولى بهم أن يجتمعوا معاً ليتناقشوا فى شئونهم ، بدلا من أن يكتفوا بالمراسلات البريدية . وفعلا وضعوا الخطة اللازمة لعقد اجتماع فى مدينة فيلادلفيا يكون أول مؤتمر قارى .

واختاروا سبعة مندوبين يمثلون فرجينيا ، منهم باتريك هنرى خطيبهم المشهور ، وجورج واشنجطن الذى لم يكن أحد خارج مستعمرة فرجينيا قد سمع باسمه قبل الآن .

ولكن باتريك هنرى قال عنه : « إنى أعتقد أنه لا مثيل له فى فيلادلفيا كلها ، من حيث سداد الرأى ، ومن حيث سعة المعلومات »

وقبل أن يسافروا إلى فيلادلفيا هذه ، قضى باتريك هنرى ، وأحد المندوبين الآخرين الليلة تلك — ليلة سبتمبر — عند واشنجطن فى ماونت فرنون . وفى مساء اليوم التالى عقب فراغهم من تناول عشاء مبكر سمعوا وقع حوافر الخيل التى أعدت لهم عند الباب .

فقالت مارثا للضيوف وهم يغادرون المنزل : أرجو أن تقفوا فى الجلسة موقفاً حازماً ، فانى واثقة كل الوثوق من الموقف الذى سيقفه جورج .

ثم رفعت بصرها إلى الرجل الضخم ، وأمسكت بأطراف رداء سترته وهو ينحنى لها ليودعها .

وكان جاكى كوستيس، ومعه زوجته الشابة، واقفاً بجانب أمه عندما امتطى الرجال الثلاثة خيولهم واتجهوا مسرعين نحو الطريق العام، يتبعهم رتل من الخدم عليهم حللهم القرمزية اللون .

وهكذا مضى الآن أكثر من خمسة عشر عاماً على اليوم الذى جاء فيه جورج واشنجطن بمارثا وطفليها إلى ماونت فرنون . وكانت باتسى قد توفيت الصيف الماضى ، فحمد جورج الله أنه لا يترك مارثا الآن وحدها . فبعد أن غادر البيت بمسافة غير قصيرة التفت إليها ورفع قبعته يحييها، فحركت هى منديلها، وظلت واقفة ترقبه إلى أن اختفى عن الأبصار . انهم سيستغرقون أربعة أيام قبل أن يصلوا إلى فيلادلفيا .

وفى الأيام الأولى من شهر سبتمبر سنة ١٧٧٤ ، أخذ المندوبون إلى الكونجرس العام الأول يفدون على فيلادلفيا من شتى الطرق الكثيرة الأتربة التى توصل إليها . فبعضهم راكب عربات السفر العامة، والبعض الآخر على ظهور الخيل. وكان عددهم واحداً وخمسين عضواً لابسين قبعات مثلثة الأركان ، جاءوا من جميع المستعمرات إلا جيورجيا. لأن أنباء هذا الاجتماع لم تبلغها فى الوقت الملائم . ولا شك أنهم جميعاً — وهم يفكون أربطة حقائبهم ويفتحونها فى الفنادق والمشارب العامة التى اختاروا أن ينزلوا فيها — كانوا متلهفين على رؤية أولئك الأغراب الذين جاءوا من المستعمرات الأخرى وفى أى شكل يبدون .

وكان جورج واشنجطن يتوق إلى رؤية مندوبى بوسطن : صموئيل آدمز ، وابن عمه جون آدمز ؛ فقد تواترت الأنباء بأنهما

لم يعودا مواليين للملك الانجليز ، بل صارا يعملان على التحرر من انجلترا والتخلص منها . ولكن جورج واشنجطن لم يستطع تصديق تلك الأنباء ؛ ومع ذلك أراد أن يستوثق من الأمر بنفسه . فمضى مساء الثامن والعشرين من شهر سبتمبر إلى حيث ينزل جون آدمز ليتحدث إليه . وكانت تلك أول مرة يتحدث فيها هذان الرجلان بعضهما مع بعض . مع أنهما قد ظلا ثلاثة أسابيع وكل منهما يرى الآخر كل يوم فى أثناء انعقاد جلسات الكونجرس . فلا بد أن يكون واشنجطن على الأقل قد لمح ذلك الرجل القصير المكتنز الجسم ذا الشعر الأجعد — ذلك المحامى من ماساشوستس — يتجول بين الحاضرين. ومع أن جون آدمز لا بد أن يكون قد رأى كذلك ذلك المزارع الفرجينى — ذلك الرجل الضخم القليل الكلام الذى لوحت الشمس وجهه . ولكنه مع هذا لم يلق إليه بالا ، ولم يتنبه إليه إلا عندما جاء يقرع باب بيته فى تلك الليلة ، ودخل غرفته الخاصة ذات السقف المنخفض فى الدور الثانى .

وتحدث الرجلان فى كثير من الشئون . ولحظ جورج واشنجطن أن لا جون آدمز ، ولا ابن عمه صمويل ، قد ذكر مرة واحدة كلمة الحرية أو كلمة الاستقلال فى معرض حديثه . فتأكد أنهما غير راغبين فى الحرية ولا فى الاستقلال . ولكنه كان لا شك واهماً فيما ظن أنه تأكد منه .

والحق أنهما قد سبق أن حُذرا من قبل . فان بعض أصدقائهما قابلوهما فى عربة المسافرين العامة قبل أن يصلا إلى فيلادلفيا ببضعة

أميال ونبهوهما إلى ضرورة مراعاة الحيطة والحرص؛ فان فيلادلفيا مكتظة بالموالين للملك، وأن كلمة الاستقلال تنزل عليهم نزول الصاعقة . وعلى هذا ، لم يذكر أحد كلمة واحدة عن الانفصال عن انجلترا تلك الليلة، ولا فى أية جلسة من جلسات الكونجرس، واكتفى المندوبون بتقديم « عريضة » إلى الملك ذكروا فيها أن رعاياه المخلصين له يرجون من مليكهم الجليل الرحيم أن يحقق لهم العدالة .

وبعد ذلك تفرق المندوبون ، وعادوا إلى بلادهم ، على أن يجتمعوا ثانية فى شهر مايو عندما يصلهم رد الملك على ما طلبوه فى عريضتهم .

ومضى فصل الشتاء كله ولم يرد أى جواب؛ ثم حل شهر مارس وازدهرت براعم الكريز فى ماونت فرنون ولم يصل بعد أى رد من الملك .

فقال باتريك هنرى فى اجتماع عقد فى فرجينيا ، وحضره جورج واشنجطن ، لم تعد ثمة جدوى من الانتظار أكثر من ذلك : « إننا يجب علينا أن نكافح فى سبيل الوصول إلى حقوقنا . ولست أدرى الخطط التى سيجرى عليها سواى، ولكنى أنادى هنا أن أعطونى الحرية أو دعونى أموت » .

واعتقد أهالى فرجينيا أن لا مناص لهم إذن من القتال، ولذا بدأوا فعلا يدربون الشباب تدريباً عسكرياً ويسلحون فرقاً من الجند، وطلبوا إلى جورج واشنجطن أن يتولى قيادة الجيش .

فلما رحل جورج واشنجطن إذن إلى فيلادلفيا للمرة الثانية لحضور مجلس الكونجرس لم يرحل إليها بوصفه مزارعاً، بل بوصفه جندياً يرتدى حلة عسكرية زرقاء وصفراء . وستمضى أعوام كثيرة قبل أن يعود إلى ماونت فرنون . لقد انتهت تلك السنون الوادعة المطمئنة التى كان يقضيها فيه .

كان ذلك فى مايو سنة ١٧٧٥ . والآن وقد بلغ جورج واشنجطن الثالثة والأربعين فان ذلك الجزء من حياته الذى سيكون محك أخلاقه ومقياس عظمته قد أوشك أن يبدأ .

الجنرال واشنجطن

ما إن دخل جورج واشنجطن دار الحكومة فى فيلادلفيا حتى استرعت حلته العسكرية الأنظار . وفى الحال رمقه جون آدمز وقال :

« هاكم رجل واحد ، مستعد للعمل ! »

وكان جون آدمز قد جاء من بوسطن آملا أن يجد جميع المندوبين إلى المؤتمر الثانى هذا ، مستعدين للحرب والكفاح ، مثلهم فى ذلك مثل مندوبى مساشوستس .

وليس من شك أنه كان يجب عليهم أن يكونوا كذلك ؛ فالحرب قد بدأت فعلا . فمن أسبوعين ، فى ليلة من ليالى أبريل ، هب بول ريفير على جواده مندفعاً اندفاعاً جنونياً لينذر سكان بلدة كونكورد أن ذوى « البذلات الحمراء » آتون إليهم . وفى الصباح التاسع عشر من أبريل ، تبودلت الطلقات الأولى بين « رجال مساشوستس الصغار » (كما كانوا يسمونهم) وبين الجنود البريطانيين ؛ وبذلك بدأت المعركة الأولى من معارك الثورة الأمريكية .

ولقد ساء جون آدمز أن يجد أن المندوبين مازالوا مع ذلك منقسمين بعضهم على بعض ، وأنهم ما زالوا مترددين ، وفى حيرة من أمرهم لا يدرون ماذا يصنعون ؛ وبلغ به الغضب كل مبلغ فى منتصف شهر يونيه ، فخرج إلى فناء دار الحكومة يستنشق الهواء ، ثم عقد عزمه على أن يعمل . فلما انعقد الكونجرس ، انتفض قائماً وألقى كلمة موجزة ثم قال :

« أعرض على الكونجرس أن يتبنى الجيش الرابض على مقربة

من بوسطن ، وأن يعين له قائداً عاما . ولست أعرف سوى رجل واحد ، يصلح لهذا المنصب الخطير الشأن ؛ وهو سيد من فرجينيا ؛ فثروته العظيمة ، ومواهبه الكبيرة ، وأخلاقه الممتازة الرفيعة ، تتيح له أن يجمع شمل المستعمرات ويلم شعثها أكثر مما يستطيعه أى شخص آخر فى الثلاث عشرة مستعمرة كلها » .

وبعد أيام قلائل اختير واشنجطن قائداً عاماً بالإجماع . وفى السادس من شهر يونيه أخبر رئيس الكونجرس ، جون هانكوك ، السيد واشنجطن بنبأ اختياره قائداً عاماً للجيش .

فنهض واشنجطن متمهلا وقال : يا سيدى الرئيس . إنى إذ أدرك حق الإدراك الشرف العظيم الذى أوليتمونيه ، أعلن مخلصاً كل الإخلاص أنى لا أرى نفسى كفئاً للاضطلاع بأعباء هذه القيادة . أما من حيث الأجر فلست ياسيدى بحاجة إلى شىء منه ، وإنما سأدون بغاية الدقة جميع النفقات التى سأتحملها ؛ وهذا كل ما أرغب فيه .

وبعد أسبوع واحد غادر القائد الجديد مدينة بوسطن . وفى الثالث من يوليه سنة ١٧٧٣ وصل مدينة كمبريدج عبر النهر ، فرأى لأول مرة هذا الجيش الغريب المكون من أمشاج من الجند غير المدربين تدريباً عسكرياً ، من صبيان الفلاحين ورجال الغابات ، وسواهم ممن انضم إليهم من الشباب . فكان جيشاً عجيباً حقاً ، على الرغم مما يحدوه من إخلاص ، ومن رغبة أكيدة فى العمل . فهذا هو الجيش المطلوب من واشنجطن أن يطرد به الجنود الانجليز المدربين خير تدريب ، ويخرجهم من بوسطن !

حرب الاستقلال

ولدت الولايات المتحدة فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١٧٧٦ . فبعد مضى سنة كاملة على تولى واشنجطن قيادة الجيش ، أعلنت المستعمرات تحررها من ربقة الانجليز واستقلالها عنهم . وكتب جيفرسون « إعلان الاستقلال » هذا ، ثم وقعوه بامضاءاتهم .

ولم يوقعه جورج واشنجطن مع من وقعوه ، لأنه كان غائباً عن فيلادلفيا يوم قراءة إعلان الاستقلال فيها ، فقد كان مع جيشه فى نيويورك . وما أن وصلته نسخة من هذا الإعلان حتى أمر بتلاوته على رجاله ، فاشتعلت حماسة الجند ، وفرحوا أيما فرح أن يسمعوا أنهم لم يعودوا رعايا للملك جورج الثالث . وهرعوا إلى الحديقة يقوضون تمثاله القائم بها ؛ ثم حطموا رأسه ، وأخذوا تمثال الجواد المصنوع من الرصاص وصهروه ليعملوا منه ذخيرة لبنادقهم .

على أن جورج واشنجطن لم يرض عن هذا السلوك الخالى من الاحترام ، ولم يوافق عليه ، وإن كان يوافق كل الموافقة على الاستقلال ؛ فانه — أكثر من أى إنسان آخر — هو الذى سيجعل من ذلك الاستقلال المكتوب على الورق أمراً ناجزاً ، واستقلالا حقيقياً . فهو مؤمن بأن المستعمرات يجب أن تكون حرة ، وكان مستعداً كل الاستعداد لأن يقاتل فى سبيل تحريرها .

وكانت حرباً طويلة مريرة ، دامت ست سنوات منذ أطلقت

الرصاصات الأولى فى مساشوستس إلى أن وقف إطلاق النار فى مدينة « يورك تاون » بفرجينيا . وكان لابد أن تمضى سنتان أخريان قبل أن توقع محالفة الصلح وتضع الحرب أوزارها فعلا .

فكانت ثمانى سنوات طوالا ثقيلة على واشنجطن ، ومليئة بكل ما يثبط الهمم ويفت فى الأعضاد . فكان عليه أن يوالى شن الحرب من غير أن يكون لديه ما يحارب به . فلم يكن معه من الجنود ما يكفيه لمثل هذه الحرب ، ولم تكن المدافع والذخائر بكافية حتى لمن كان معه من الجنود فعلا ، بل ، ولم تكن الملابس ولا المؤن نفسها بكافية لهم . وزيادة على ذلك كله لم يكن معه من المال مايدفع به أجور الجنود ، لأن خزانة الكونجرس كانت خاوية .

ومع هذا كله لم يتحرج الكونجرس من أن يطالبه بعمل المستحيل ، فكان يلومه إذا أخفق ؛ ذلك إلى أن بعض ضباطه أخذوا يفقدون ثقتهم به ، وجعلوا يكيدون له ، ويدبرون مؤامرة للقضاء عليه . بل ان واحداً ممن كان يوليهم ثقته كاملة انقلب خائناً . ومع ذلك ظل واشنجطن يثابر ويثابر على ما نصب نفسه له طيلة هذه السنوات كلها ، وجعل يبذل كل مافى وسعه ليعمل بمن عنده من جند ومن عتاد ؛ لقد صمد وصمد !

وها هى السنة الأولى قد مضت ، وقضى الجند الشتاء على الثلوج المتراكمة خارج بوسطن . ولما حل الربيع كان رأى الانجليز قد استقر على مغادرة الميناء ، وكان واشنجطن يرقبهم بمنظاره ، وهم يصعدون إلى سفنهم ثم يبحرون .



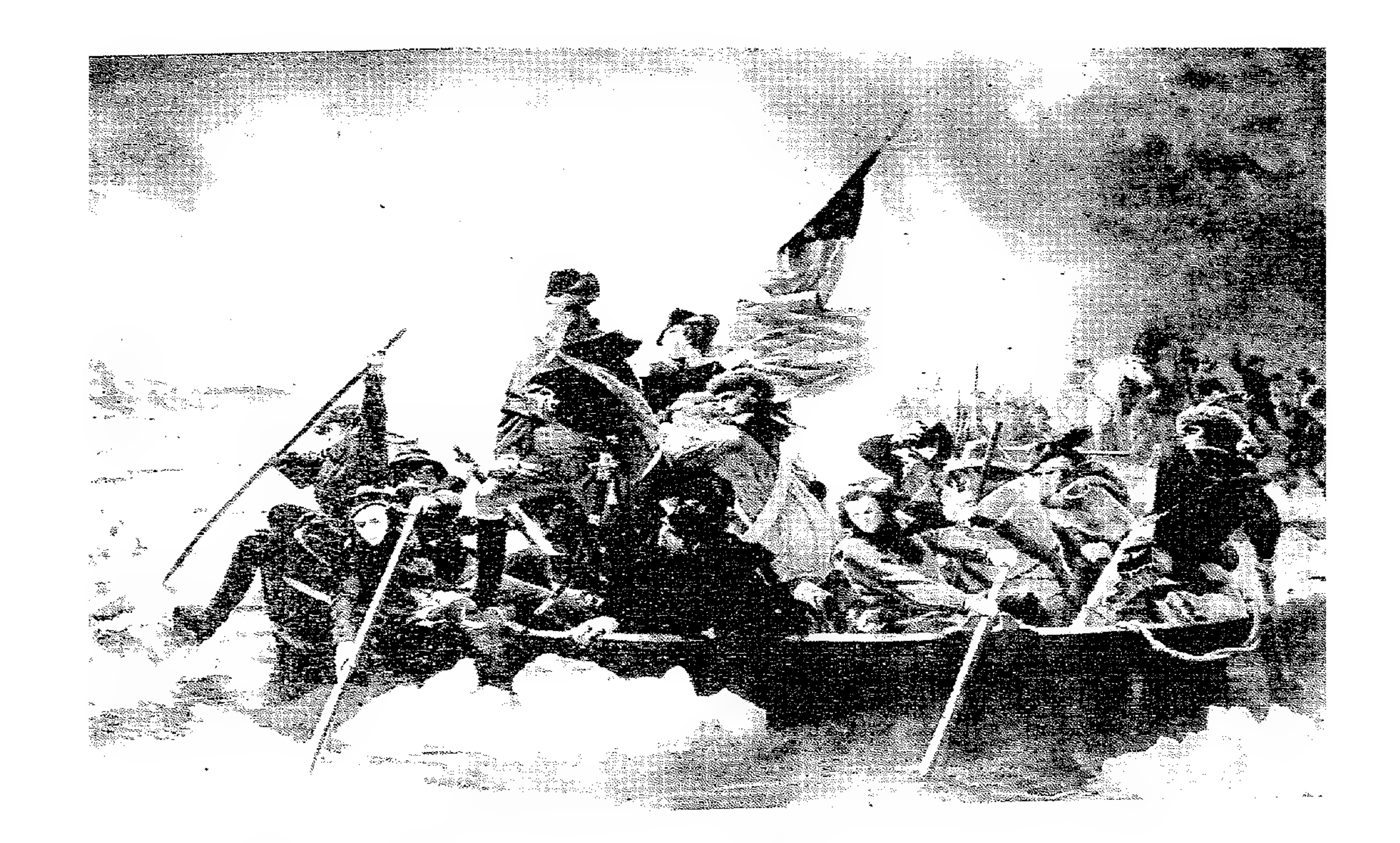
المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية
التى حاربت انجلترا سنة ١٧٧٦

وبحسب الأوامر التي صدرت إليه من الكونجرس نقل واشنجطن جيشه المرقع إلى نيويورك كي يحاول المحافظة على هذه المدينة من أن تقع في أيدي الانجليز . ولكن تبين أن هذا أمر مستحيل ، فليس عنده من السفن ما يمنع به مراكب الانجليز من أن تدخل الميناء . وفعلا دخلها الجنرال (هاو) بمراكبه . ولما كان ما عند الجنرال الانجليزي ضعف ما عند واشنجطن من الرجال استطاع أن يدحر الأمريكيين ويبعدهم عن المدينة ، وظل يطاردهم على نهر هدسون حتى عبروا هذا النهر إلى « نيوجرسي » فاكتفى بما نال من انتصار وعاد إلى نيويورك .

وفي نيويورك وجد أن اللورد كرنواليس قد وصل من انجلترا ومعه طائفة كبيرة من الجنود الألمان المرتزقة استأجرهم ليحاربوا معه في صفوفه . فأرسلهم الجنرال هاو لمطاردة الأمريكيين ؛ واستمرت المطاردة أسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ، في نيوجرسي ؛ واستمر واشنجطن وجنوده يتقهقرون ويتقهقرون ، والعدو على أعقابهم يطاردهم كما تطارد كلاب الصيد ثعلباً .

ولما كان واشنجطن يتقهقر بسرعة كبيرة لم يتيسر له أن يحمل معه ما يكفيه من المؤن ، فأخذت جنوده تهرب من الجيش ، وانقلب عليه بعض ضباطه . ولما شرع يعبر نهر الديلاوير عند بنسلفانيا استولى الذعر على الكونجرس . وتوقع أعضاؤه أن يروا كرنواليس وجنوده يدخلون نيويورك في أية لحظة .

كان ذلك في شهر ديسمبر ، ومن العسير على البريطانيين أن



وفى شهر ديسمبر عبر واشنجطن نهر الديلاوير على الرغم من تجمد
مياهه لشن هجوم مفاجىء على العدو

يعبروا نهر الديلاوير لأن معظمه قد تجمد ، وزخرت مياهه بكثير من قطع الجليد الطافية ؛ ولذا اضطرت الطلائع التي أرسلها كرنواليس أمامه للتوقف عن المسير ، في مدينة ترنتون من ناحية جرسى . ثم دخل عيد الميلاد ، وجعل الجنود الألمان الذين استؤجروا من هسّه يحتفلون به على طريقتهم ، فظلوا يشربون الخمر ، وينشدون أناشيدهم القومية طول اليوم حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي هذه الليلة ذاتها عاد واشنجطن وعبر نهر الديلاوير على الرغم من تجمد مياهه ، فعبره عند نيوجرسى في مراكب صغار وسط الثلوج الكثيرة المتساقطة ، التي تكاد تعشى الأبصار ، ثم انقضوا في الفجر على الجنود المخمورين الذين غلب عليهم النعاس فأسروهم . فلما وصل كرنواليس كان واشنجطن حيث هو .

فقال كرنواليس « الآن سأصيد ذلك الثعلب العجوز الماكر هذه الليلة » . ووضع خطته للقبض عليه في الصبـــــــاح . ولكن كرنواليس استيقظ فوجد الثعلب العجوز أشد مكراً وأوسع حيلة . لقد أفلت [illegible]

فبينا كان كرنواليس يغط في نومه ، تسلل واشنجطن في الظلام تاركاً نيران معسكره موقدة لتخدع الحراس الانجليز ، فيظنوا أنه لا يزال حيث هو ، على حين أنه قد استطاع أن يتسلل حول خطوط أعدائه ويهرب . ولما طلع الفجر كان هو وجنوده قد ساروا مسافة بعيدة واتجهوا نحو الشمال . فحدثت موقعة في برنستون انتهت بفوز الانجليز ، وبها اختتمت معارك هذا الشتاء ؛ وعاد كرنواليس إلى

نيويورك؛ومضى واشنجطن إلى نيوجرسى ليعسكر فيها طيلة فصل الشتاء. وجاءته مارثا زوجته من ماونت فرنون لتكون إلى جانبه، فعكفت على الجوارب تصنعها للجنود، ثم غادرت المعسكر عند حلول الصيف فقد كان متوقعاً أن يُستأنف القتال .

ولم يكن واشنجطن يدرى أين سيبدأ القتال ، ولا أية مدينة يقصد الانجليز أن يستولوا عليها ، ولكن كان فى استطاعته أن يحزر وظل هذا موقفه حتى قرابة أول أغسطس .

فقد جاءته طلائعه من الكشافة تخبره بأن الجنرال هاو غادر مدينة نيويورك . وشوهدت السفن البريطانيـــة تمخر فى خليج « تشسابيك » فلم يعد ثمت ريب فى أنها قاصدة إلى فيلادلفيا !

فاضطرب الكونجرس وتفرق أعضاؤه ، وفزع « الثوار » الذين ظلوا فى فيلادلفيا. فكى ينفث فيهم واشنجطن الشجاعة أمر جنوده بالمسير فى شوارع المدينة أمام الدار التى تم فيها توقيع إعلان الاستقلال بتلك الجرأة الكبيرة وذلك الإقدام العظيم . وفعلا سارت الجنود ، رجالا وصبياناً، يتقدمهم قائدهم المخلص بكل شجاعة ، ينشدون أغنية من أغانيهم تعرف باسم « يانكى دودل » تصحبهم المزامير والطبول،وقد وضعوا على قبعاتهم البالية فروعاً صغاراً من الشجر الأخضر لتخفى ما بها من بلى ومن ترقيع .

وبينما كان الثوار يهتفون للجنود وهم يسيرون فى ملابسهم الممزقة كان « المحافظون » يسخرون منهم ويستهزئون بهم؛ فقد كان لا يزال فى فيلادلفيا كثيرون من هؤلاء الأمريكيين الذين ظلوا

على ولائهم للملك الانجليز ، وكانوا يتلهفون أن يسمعوا أن البريطانيين دخلوا مدينتهم . وبعد معركة أو اثنتين استطاعوا أن يدخلوها فعلا . ففى أوائل أكتوبر كان الجنرال هاو وجنوده يتجهون نحوها وما لبثوا أن استولوا عليها فبقيت فى أيديهم الشتاء كله وظلت بها جنودهم فى مرح واطمئنان .

وعلى مسافة لا تزيد على العشرين ميلا كان واشنجطن وجنوده يعانون الكثير من قسوة الشتاء على التلال المكشوفة عند «فالى فورج» وقد أخذ منهم الجوع كل مأخذ ، ويكاد الصقيع أن يجمدهم ، والبرد يقرسهم ؛ فالكثيرون منهم حفاة لفوا أقدامهم المتعبة المتشققة بخرق بالية ، فكانت تدمى وتترك آثارها دماء قانية على الثلوج ، وهم يتنقلون من مكان إلى مكان يقطعون الأشجار ، ويقيمون من جذوعها أكواخاً وعروشاً ليأووا إليها . وكان واشنجطن فى خيمة على مقربة من رجاله ، يعيش معهم ، ويأكل مما يأكلون . وظل على ذلك إلى أن أنجز الجند هذه الأكواخ الخشبية ، فانتقل إلى بيت صغير مبنى بالأحجار على مقربة من الخليج ، وجاءته مارثا كعادتها ، تقضى فصل الشتاء إلى جانبه ، فجعلت تتنقل أيام الصحو من كوخ إلى كوخ ، وقد علقت سفطاً فى ساعدها ، تزور المرضى من الجند وتواسيهم ، وتعمل كل يوم فى صنع الجوارب ، ورفو الملابس وترقيعها مع زوجات الضباط الآخرين .

وقضى واشنجطن هذا الشتاء مهموماً ، منقبض الصدر ، حزناً على ما عاناه جنوده من متاعب ومشقات ، فضلا عما قاساه

هو مما كان يصله من خطابات من الكونجرس كلها لوم ونقد ؛ على حين أن أعضاءه لم يقدموا له أية معونة تذكر . ذلك إلى أنه وقف على مؤامرة حيكت ضده بقصد القضاء عليه وعزله وإحلال قائد آخر مكانه . على أن ذلك كله لم يفت فى عضده بحال من الأحوال ، بل صمد وثابر واحتفظ بشجاعته ، فثبت للعدو على على الرغم مما كان يتأذى به من عدم ثقتهم به . وعلى مر الزمن انكشفت المؤامرة ، وانقضى ذلك الشتاء المرير ، وعاد الربيع — ربيع سنة ١٧٧٨

ومع الربيع جاءت أخبار طيبة — أخبار عظيمة رائعة حقاً . فذات يوم من أيام شهر مايو كان المعسكر كله غارقاً فى الاحتفالات والاستمتاع بالمسرات ، وقد بلغ السرور بصاغ شاب أن اندفع وألقى ذراعيه على واشنجطن يعانقه ويقبله فى وجنتيه ، ولم يكن هذا الصاغ غير المركيز لافاييت . وهو شاب فرنسى لم يتجاوز العشرين من عمره ؛ فما عسى أن يكون سبب هذا الفرح كله ؟

لقد انضمت فرنسا إلى أمريكا فى كفاحها ضد الانجليز ، ووقع لويس السادس عشر ملك فرنسا معاهدة مع بنجامين فرانكلين الذى ذهب إلى فرنسا يستعين بها على الانجليز .

وكان لافاييت قد غادر فرنسا منذ سنة واحدة . وجاء إلى أمريكا ليشترك معها فى كفاحها فى سبيل التحرر من الانجليز ، فتسلل إلى الميناء متخفياً بأن وضع على شعره الأحمر الطبيعى شعراً آخر مستعاراً حالك السواد . فقد منعه الملك من مغادرة فرنسا

ليذهب إلى أمريكا . أما الآن فقد غير الملك رأيه وأصبحت فرنسا تعاون أمريكا فى حربها ضد الانجليز ، ولسوف تصل الجنود والسفن الفرنسية من غير إبطاء .

وغيرت هذه الأخبار خطط البريطانيين ، فعاد الجنرال هاو إلى انجلترا تاركاً القيادة فى أيدى جنرال آخر غيره ، ولما علم القائد البريطانى أن أسطولا فرنسياً قد اتجه صوب نيويورك ، رأى أن وجوده فيها قد يكون أفيد من بقائه فى فيلادلفيا . ومن أجل هذا غادر فيلادلفيا يتلوه رتل من عربات البضاعة إلى أن بلغ نيويورك على بعد اثنى عشر ميلا . فتبعه واشنجطن ، وعسكر غير بعيد عنه فى موضع يمكنه من الإشراف على المدينة ويترقب وصول الأسطول الفرنسى آملا أن يتمكن من استرداد نيويورك بمساعدة هذا الأسطول .

ولكن يا لخيبة الأمل ! فقد وصلت السفن الفرنسية فى شهر يوليه حقاً ، إلا أن مياه الميناء لم تكن من العمق بحيث تمكن هذه السفن الضخمة من دخولها ، فارتطمت قيعانها بالرمال ، وعجزت عن دخول الميناء ، وظل الانجليز فى نيو يورك . وظل واشنجطن وجنوده متخذين موقف الحراسة على مقربة منهم حتى نهاية الحرب.

ولكن ميدان الحرب انتقل من هذا الوقت إلى الولايات الجنوبية الأربع . فبدأ فى جيورجيا ربيع سنة ١٧٨٠ ، وهى السنة الخامسة للحرب ، واخترق الانجليز جيورجيا هذه ، ثم كارولينا الجنوبية بقيادة اللورد كرنواليس ، وكان قد تحرك إلى كارولينا الشمالية ، ثم اتجه إلى فرجينيا . وتلك أخبار محزنة لواشنجطن حقاً . على أن

الأمر لم يخل من وصول أخبار طيبة .

فقد وصلت الجنود الفرنسية أمريكا ، ونزلت بنيوبورت في رودآيلاند ؛ فاصطحب واشنطن لافاييت وسارا معاً للتشاور مع القائد الفرنسي ، الشيخ الصديق الذي يناديه جنوده « بابا روشامبو »

وكان واشنطن يأمل أن يهاجم القائد الانجليزي في نيويورك ، ولكن الحزم والكياسة منعاه من أن يحاول شيئاً من ذلك قبل أن يصل أسطول فرنسي آخر كان في طريقه إلى أمريكا فعلا ؛ فلم يبق له إلا الانتظار ، حتى تنتهي هذه السنة ثقيلة بطيئة . ثم في أوائل السنة التالية علم واشنطن من توماس جيفرسون ، وكان وقتئذ الحاكم على فرجينيا ، أن الجنود البريطانيين دخلوا هذه الولاية فعلا ، وجعلوا يحرقون كل ما يصادفهم في طريقهم من مخازن التبغ ، ويعيثون في البلاد فسادا فكلف واشنطن لافاييت بالسير جنوباً في الحال ، وأرسل معه جميع من يستطيع الاستغناء عنهم من الجنود .

وما لبث واشنطن أن جاءته الأخبار بأن القائد كرنواليس نفسه صار هو الآخر في فرجينيا . وعندئذ رأى واشنطن أن الأولى به أن ينتظر حتى ترد إليه أخبار من لافاييت .

وأخيراً أرسل إليه لافاييت ، في الخريف ، يعلمه بضرورة حضوره إلى الجنوب على جناح السرعة ؛ فقد وصل الأسطول الفرنسي خليج تشسابيك ، وتمكن القواد الأمريكيون من أن يحيطوا بكرنواليس ويحصروه في « يورك تاون » .

وما إن علم واشنطن بهذه الأخبار حتى سارع هو وروشامبو

واتجهوا فى الحال نحو الجنوب . وما لبثت الجنود الأمريكية فى خرقهم البالية ، والجنود الفرنسية فى حللهم الرائعة ، أن تحركوا وسط هتافات الشعب وتهليله ، فاخترقوا مدينتى فيلادلفيا وبلتيمور ، وعبروا نهر البوتوماك إلى فرجينيا . وذات ليلة فى ساعة متأخرة فى ماونت فرنون أوقظت الأسرة كلها ، فهبوا من نومهم دهشين أن يروا واشنطن نفسه واقفاً أمامهم . وفى اليوم التالى ، حضر بابا روشامبو فاحتفى بهما الجيران أيما احتفاء ، ولكنهما لم يلبثا حتى رحلا .

ورافق جاكى كوستيس واشنطن بوصفه ياوراً له ، فودع بناته الصغار الثلاث وطفله الوليد وداعاً كان هو الأخير . فان جاكى كوستيس لن يعود إليهم .

وفى ويليامزبرج ، على بعد عشرة أميال من « يورك تاون » ، وجد واشنطن لافاييت فى انتظاره ؛ وما إن رأى هذا قائده المحبوب حتى تهلل وجهه وأشرق ، وبدت عليه سيماء الفرح والسرور .

وفى التاسع من أكتوبر سنة ١٧٨١ ضربوا الحصار على مدينة « يورك تاون » ، فأطلق واشنجطن أول مدفع . ثم ظلت المدافع تدوّى وتقصف عشرة أيام متوالية حتى انعقدت سحب الدخان كثيفة فى سماء المدينة الصغيرة . وأخيراً وقف إطلاق المدافع .

فقد استسلم كرنواليس .

وفى الساعة الثانية مساء ، وشمس أكتوبر لا تزال ترسل أشعتها على بذلاتهم الحمراء ، خرج الانجليز من مدينة « يورك تاون » ،

وفرقهم الموسيقية تعزف لحناً بريطانياً معروفاً : « انقلبت الدنيا رأساً على عقب » .

وساروا بين صفوف متوازية من الجنود الفرنسيين والأمريكيين ، وقفوا كلهم فى صمت رهيب ، واحترام عميق ، فبذلك أمرهم قائدهم واشنجطن ؛ ثم ألقى البريطانيون أسلحتهم .

وفى اليوم التالى لاستسلامهم ذهب كرنواليس إلى الجنرال واشنطن وقدم إليه فروض الاحـــترام . وبعد ذلك بقليل كان كرنواليس . بين صفوف الذين دعاهم واشنطن إلى المأدبة . التى أمر باقامتها لضباط الجيوش الثلاثة .

أما جاكى كوستيس فقد اشتد عليه المرض فى ويليامزبرج ، وسارعت إليه زوجته ووالدته من ماونت فرنون . وقبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة وعده واشنطن بأنه سيتبنى طفلته الصغيرة نيللى التى فى الثالثة من عمرها ، وكذا ابنه الصغير سمىّ جورج واشنطن .

وهكذا استسلم كرنواليس إذن ! فظن الناس أن الحرب قد وضعت أوزارها وانتهت ؛ ولكن الحرب لا تنتهى فعلا إلا بعد رحيل البريطانيين عن نيويورك ، وبعد أن يوقع وزراء جورج الثالث معاهدة الصلح . ولذا كان واجباً ألا تسرح الجنود الأمريكية ؛ فوجد واشنجطن مشقة كبيرة فى استبقائهم مجموعين ملمومى الشمل ؛ فقد نفد كل صبرهم واستولى عليهم القلق ، وركبهم الغضب ، فان أجورهم لم تصرف إليهم بعد ، فانهالوا على الكونجرس لوماً وتعنيفاً .

وقد بلغ بهم الغضب أن تجاسروا واقترحوا على جورج واشنجطن أن يتقدم ويقبض على ناصية الأمور، ويديرشئون الدولة بنفسه بعد أن يقلب الحكومة القائمة ويقيم نفسه ملكاً على البلاد .

ولكن ما سمع واشنجطن بذلك حتى كاد يصعق ، فسارع الى عقد اجتماع من الجنود ، ورجا منهم ألا يعملوا شيئاً من شأنه أن يقلب حرية بلادهم هذه ، أو يفسد عليهم ماحازوه من مجد وفخار. وإذ كانوا يثقون به ويؤمنون كل الإيمان أذعنوا لرأيه ، وأبدوا استعدادهم لاتباعه ؛ وظلوا على إخلاصهم للحكومة القائمة وللكونجرس.

وبعد توقيع معاهدة الصلح بشهرين وصلت أخبارها الطيبة إلى أمريكا . ففى أبريل سنة ١٧٨٣ قرىء إعلان توقيع المعاهدة على الجند ، ثم سرحوا ، وغادر الانجليز البلاد .

وفى الرابع من ديسمبر ، بمشرب «فرنسيس» بمدينة نيويورك ، قابل واشنجطن ضباطه ليودعهم ، ولكن لما وقع نظره عليهم لم يستطع الكلام ، على أنه عاد وتمالك نفسه وقال :

«بقلب مفعم بالشكر ، ملىء بالحب ؛ أستأذنكم ؛ وأرجو مخلصاً أن تكون أيامكم المقبلة سعيدة ناجحة بقدر ما كانت سابقتها مجيدة شريفة»

ثم مروا جميعاً أمامه واحداً بعد واحد ، استجابة إلى طلبه وصافحوه من غير أن ينبس أحدهم بكلمة ما . ثم راقبوه وهو يسير نحو الشاطىء ، حيث كانت تنتظره سفينة راسية عنده . ولما سارت به بطيئة متمهلة ، وجهوا إليه أنظارهم فرأوه واقفاً ينظر إليهم رافعاً قبعته بيده .

لقد نالوا الاستقلال .

فحينما سار جورج واشنجطن استقبلته الجماهير بالهتاف وعبارات الترحيب ، وأقيمت المآدب والمراقص تكريماً له . وظل فى فيلادلفيا برهة قدم فيها إلى وزير المالية حساباً دقيقاً عما أنفقه فى الحرب من أموال .

ثم سار من فيلادلفيا إلى « أنابوليس » من أعمال ماريلاند ، حيث كان الكونجرس منعقداً ، فقدم إليهم استقالته من قيادة الجيوش. ثم فى ليلة عيد الميلاد رؤى جورج واشنجطن راكباً عربة وإلى جانبه زوجه مارثا. وكانت هذه العربة تسير بهما ميممة شطر منزله .

وهكذا عاد إلى بيته الوادع الحبيب إليه فى ماونت فرنون بعد ثمانى سنوات قضاها فى الحرب والكفاح .

نيللي

الليلة ، يحتفل بعيد الميلاد في ماونت فرنون . فامتلأ البيت بالنبات الدائم الخضرة وبالأشجار ، لأن جد نيللي سيعود الليلة ؛ فلا غرو ان ظلت نيللي كوستيس الصغيرة تترقب عودته طيلة المساء فارتدت ثوبها الموسلين الأبيض ، وتمنطقت بمنطقتها الجديدة الزرقاء ، وكان ثوبها الجـــديد هذا فضفاضاً بالإضافة إلى طفلة صغيرة مثلها لم تعد الخامسة من عمرها . فظلت المساء كله تثب المرة بعد المرة إلى النافذة لعلها ترى العربة التي تقل جدها قد لاحت لها من بعيد .

وكان أخوها الصغير يجري حولها يتبعها أين ذهبت ، وأمه تهرول خلفه خشية أن يخرج من البيت إلى حيث البرد لأن الباب كان مفتوحاً وكانت العربات تمر من المدخل ، والضيوف يتوافدون بعضهم إثر بعض — ولكن جدها لم يحضر بعد .

ثم أرخى الظلام سدوله وأخذت السماء تثلج ، وجعلت نيللي ترقب اللهب في الموقد وهو يتلوى حول كتل الخشب ثم يتطاير صعداً من المدخنة ، فتناولت غصناً من نبات كان قد سقط على الأرض ، وإذا بها تسمع وقع حوافر الخيل ، فهرولت إلى الباب . لقد حضروا !

وكانت وجنتا جدتها حمراوين وباردتين عندما قبلتهما ، ونظرت إلى جدها فاذا ندف الثلج قد تعلقت بأهدابه وبقبعته المثلثة الأركان ، وسقطت على كتفي (سترته) الطويلة المبطنة بالحرير الأحمر .

أما حذاؤه الأسود فكان مصقولا ، يلمع مثل أحذية الضباط الفرنسيين الذين جاءوا معه . ثم تقاطرت الضيوف يتلو بعضهم بعضاً والتفوا حول جدها ، حتى لم تعد تستطيع رؤيته إلا بكل مشقة ، وفعلا لم تره إلا بعد انقضاء عطلة عيد الميلاد عندما تغير الجو واشتد البرد ، ولم يعد أحد من الضيوف فى البيت .

وعندئذ ما أروع ما استمتعت به من السعادة مع جدها ! فقد كان معنياً بوضع رسم جديد للبيت كما يوده أن يكون ؛ فرسم ظلة عند الجانب المواجه للنهر ، وجعل لها ثمانية أعمدة طوال ؛ ووضع على السقف قبة عليها شكل ديك يتحرك فيبين اتجاه الريح : وخطط على الجانب الآخر حديقتين جديدتين ؛ وخصص رقعة من الأرض للعب « الكرة » ووضع نقطاً صغيرة تمثل مواضع الأشجار الجديدة التى اعتزم أن يغرسها . وكلما قالت لنيلى أمها ألا تضايق جدها قال لا بأس إنها إنما تساعدنى .

ولما حل الربيع عاونت نيللى على غرس هذه الأشجار الصغيرة ، وتجولت فى الحديقة ، وتحدثت إلى جدها عن كثير من الأمور التى قال عنها جدها ذات يوم إنها لم تكن لتخطر له على بال لولا نيللى .

السيد الرئيس

ما كاد جورج واشنجطن يسمع بعبارة « رئيس الولايات المتحدة » حتى اضطرب فؤاده . وكان أول ما سمع بذلك فى اليوم الرابع عشر من إبريل سنة ١٧٨٩ ، وهو واقف فى حجرة الطعام بماونت فرنون ، بعد أن عاد من رياضته الصباحية على ظهر جواده فى المزرعة . فهنا ، وقد أحاط به أفراد الأسرة جميعاً ، سمع الرسول الموفد إليه من الكونجرس يعلنه بأنه قد انتخب بالإجماع أول رئيس للولايات المتحدة .

أول رئيس للولايات المتحدة ! يالها من مهمة شاقة جد خطيرة ! لقد مرت عدة شهور وهو يخشى كل الخشية أن يتم ذلك الأمر ؛ والآن أصبح يشعر أنه أشبه ما يكون بشقى صدر عليه الحكم .

لقد سبق له أن قام برحلة غامر بها فى مجاهل الشمال الغربى ، ولكن كان ثمة أثر ضئيل ينير له الطريق الذى يسلكه . وفضلا عن هذا ، كان معه بعض الأدلاء يرشدونه ؛ أما فى هذه الرحلة فلم يكن أحد سبقه إليها ؛ ولم يكن ثمة طريق ينهجه ، ولا دليل يرشده ؛ بل لم يكن شىء ما ؛ إذ لم يكن قبله رئيس للولايات المتحدة قط ، بل لم تكن ثمة ولايات متحدة إلا بعد سنة ١٧٨٧ .

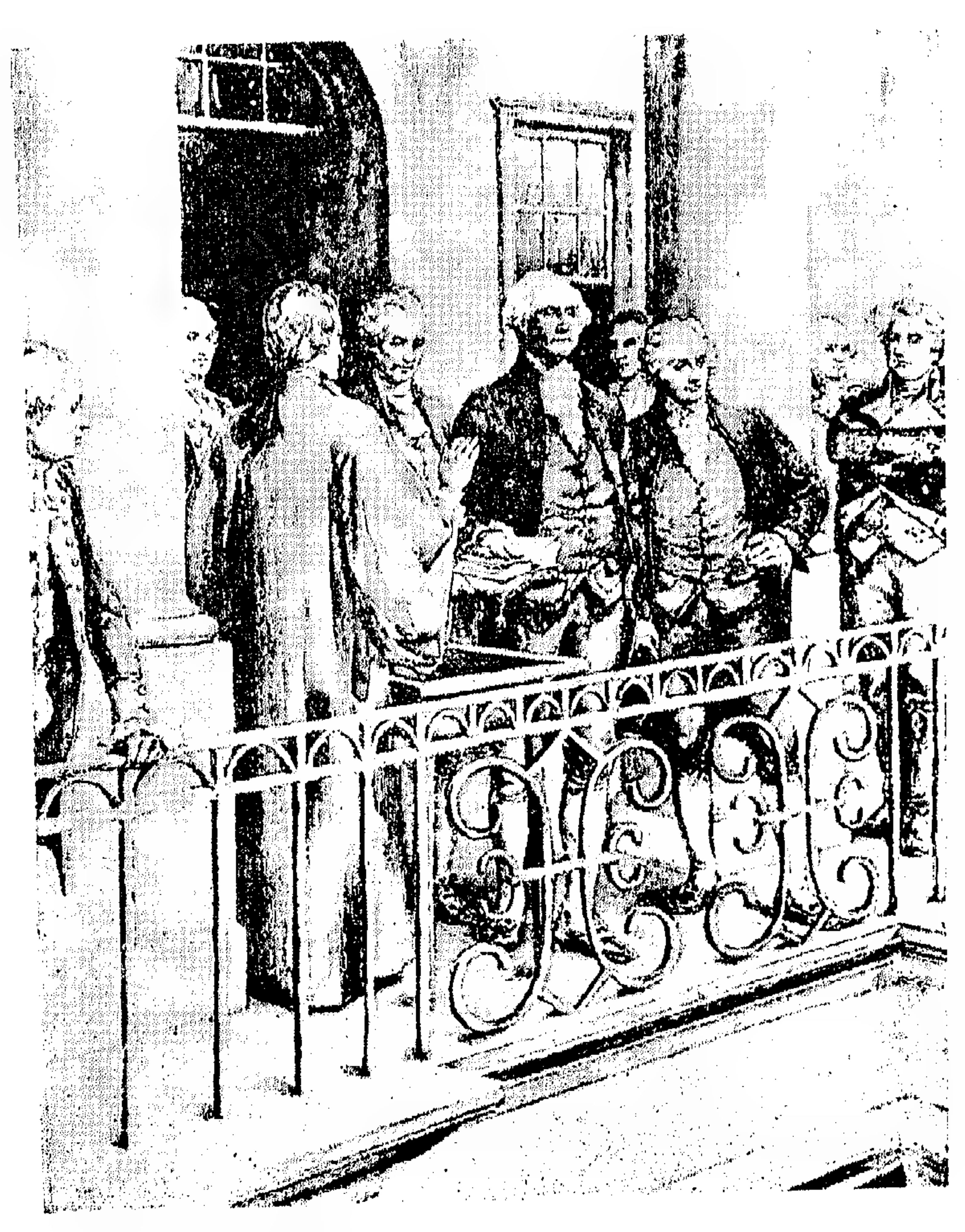
ولم تكن المستعمرات الثلاث عشرة طيلة الحرب كلها مرتبطة بعضها ببعض إلا برباط مسترخ غير وثيق ، كأنها عدة أمم صغيرة ، ولذا أخذت عقب الحرب تنفصل بعضها عن بعض ويتشاحن

بعضها مع بعض ، فلم يعد هناك خوف يربطها الواحدة بالأخرى . فلما رأى واشنجطن ذلك امتلأ قلبه حسرة وأسفاً ، كما أسف كذلك فى مختلف أرجاء البلاد ، كل رجل يحرص على رعاية سلامتها وسعادتها

وكان مندوبو المستعمرات قد اعتزموا فى مايو سنة ١٧٨٧ أن يجتمعوا ثانية فى فيلادلفيا ليروا ما يمكن عمله لإيجاد اتحاد بينهم يكون أثبت دعائم وأكمل نظاماً ؛ فصارت النظم والقواعد التى وضعوها دستور الولايات المتحدة ، وذلك بعد أن استغرق المندوبون أربعة شهور متوالية ليصلوا إلى اتفاق فيما بينهم ، وبعد أن استغرقت الولايات المختلفة سنة أخرى قبل أن تتم موافقتها على المشروع .

وفى يناير سنة ١٧٨٩ اختار الشعب الناخبين ، ثم اختار هؤلاء الناخبون الرئيس . ثم اجتمع الكونجرس الجديد فى شهر مارس من هذه السنة عينها فى مدينة نيويورك . وها هو الرئيس الجديد المنتخب يغادر بيته فى شهر إبريل .

وكان قد طلب أن يكون استقباله فى نيويورك بسيطاً ، كل البساطة . ولكن الكونجرس أعد له مع ذلك استقبالا رائعاً ، فقامت لجنة خاصة تستقبله فى نيو جرسى عبر الميناء ، على أن تقوم منها سفينة كبيرة فخمة مزدانة بالأعلام ، ويدفعها ثلاثة عشر مرشداً من مرشدى الميناء ، مرتدين حللهم البيضاء ، لتقله عبر الميناء إلى طرف وول ستريت . هذا ، وكانت الأعلام ترفرف على كل مكان ، وازدانت المبانى والعمارات بأقواس نصر من الزهر والورد ،



جورج واشنجطن أول رئيس للولايات المتحدة
وهو يقسم اليمين فى ٣٠ ابريل سنة ١٧٨٩

واصطفت جموع الشعب على جوانب الشوارع يرحبون بمقدم الرئيس ويهتفون له .

وكانت الفرق الموسيقية تملأ الجو بأنغامها ، والمدافع تحيي الرئيس بطلقاتها . ذلك ما كان من أمر استقباله . أما حفلة تقليده الرياسة فقد أجلت حتى ينتهى الكونجرس من المناقشة فى الطريقة التى ينبغي أن تراعى فى مخاطبة الرئيس . فهل يخاطب يا ترى بلقب صاحب الجلالة الملكية ؟ ولكن تلك هى الطريقة التى تتبع فى مخاطبة الملوك ؛ فكيف يخاطب رئيس الجمهورية ؟ هل يخاطب بعبارة « صاحب السمو الأفخم ؟ » أو بعبارة « صاحب العظمة السامية ؟ » أو بماذا ؟ وأخيراً نهض السير جيمس ماديسون الذى كان عضواً فى لجنة وضع الدستور فحسم الأمر بقوله : « يجب أن يقتصر فى مخاطبته على « عبارة السيد الرئيس فحسب ! »

فقال جون آدمز : هذا فى سمعى أشبه ما يكون بأنه رئيس فرقة لإطفاء الحريق . وكان جون آدمز جالساً تحت قبة من المخمل الأحمر أمام مجلس الشيوخ ، وكان قد انتخب وكيلا للرئيس لأنه كان يليه فى ترتيب عدد الأصوات .

وتقرر بعد ذلك أن يحلف الرئيس اليمين فى الثلاثين من إبريل ، بعد الظهر بقليل ، فى الشرفة التى خارج قاعة مجلس الشيوخ . واحتشدت جموع الناس فى الشوارع . فلما برز واشنجطن وأطل عليهم بدا لهم ضعيفاً مريضاً ، فقد كانوا يطالبونه بأكثر مما فى طاقته ، ولكنه عاد واستجمع قواه ، وتقدم بضع خطوات ووضع

يديه على الكتاب المقدس وحلف اليمين فقال : « أقسم أن أؤدى عمل رئيس الولايات المتحدة بكل أمانة وإخلاص ، ولن أدخر وسعاً فى أن أحافظ على دستور الولايات المتحدة وأصونه وأدافع عنه . »

وهتف الشعب : « بارك الله جورج واشنطن ! » « عاش رئيسنا » !

وسُرت نيللى كل السرور أن تكون حفيدة الرئيس ، وأن تعيش معه فى نيويورك — تلك المدينة الكبيرة التى يقطنها ثلاثون ألفاً من السكان ؛ وطاب لها أن تسمع الناس كلهم ينادون جدتها بالسيدة واشنطن ؛ وأعجبها أن تشاهد أولئك السيدات الأنيقات اللواتى جئن ليشهدن حفلة الاستقبال ، واستحسنت طريقتهن فى تصفيف شعورهن بما وضعن عليها من الذرور الأبيض ، وكومها عالية على رؤوسهن ، وزينتها بالشرائط وريش النعام .

وأقامت جدتها حفلة استقبال فى أول ليلة جمعة ، وسمحت لنيللى ولأخيها واشنجطن الصغير أن يحضرا هذه الحفلة برهة . أما جدهما فقد اختار أن يكون يوم الاستقبال عنده يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، ولكنه جعله استقبالا مقصوراً على الرجال وحدهم . وكان يرتدى فيه عادة حلة من المخمل ، فيبدو فيها جميلا رائعاً ؛ ولكنه كان أحياناً يرتدى حلة سمراء ذات أزرار ذهبية نقش عليها صورة نسر يحمل فى منقاره ثلاثة عشر سهماً .

مرض الرئيس ذات مرة ، وظل يعانى المرض مدة غير طويلة ،

فمد حبل طويل عبر الشارع حتى لا تمر فيه عربات تحدث ضوضاء تقلق راحته ، ولم يسمح لنيللى فى أثناء مرض جدها أن تظل تتدرب على العزف على الآلة الموسيقية التى تتعلم عليها ؛ ولكن لما عادت إليه صحته واسترد عافيته ، كان الأربعة جميعهم يخرجون كل يوم تقريباً فى رياضة طويلة فى العربة .

وقال لهم جدهم إنهم سيذهبون فى الشتاء التالى إلى فيلادلفيا ، لأن عاصمة البلاد ستتغير .

العاصمة الجديدة : واشنجطن

كان المساحون يعملون ذات يوم من أيام شهر يونية فى بضع حقول وغابات عبر نهر البوتوماك من ناحية الاسكندرية .

وكان جورج واشنطن مع آخر أصغر منه سناً يراقبانهم من حقل تبغ قديم على قمة ربوة عالية ؛ وكان الهواء نسيما عليلا ، وفى السماء الزرقاء الصافية تسبح فوقهم بضع سحب بيضاء . ففى مثل هذا اليوم الصائف الصحو منذ اثنتين وأربعين سنة كان واشنطن مساحاً صغيراً يعمل فى مسح مدينة الاسكندرية ، أما الآن ، وهو فى التاسعة والخمسين ، فانه يعمل رئيساً للولايات المتحدة !

اختار واشنطن هذه البقعة التى وراء نهر البوتوماك الحبيب إلى نفسه لتكون مقراً للدولة الجديدة ؛ وفيها أخذوا يبنون عاصمة جديدة . أما زميله الذى كان معه يحمل ملفاً من الرسوم والخرائط ، فهو المهندس الفرنسى الذى اختير ليضع تصميما للعاصمة فجاء الاثنان كلاهما هذا المساء ليختارا مواقع المبانى المختلفة ، فاتفقا على أن يكون مبنى الكونجرس على قمة الربوة ، وأن يكون مركزاً تتفرع منه شوارع كثيرة .

فقد قرر الكونجرس منذ أكثر من سنة — بعد أن ظل أعضاؤه يتنقلون من مدينة إلى مدينة — قرر أن يتخذ له مقراً دائماً. وظل الأعضاء يتناقشون ويتجادلون مدة طويلة قبل أن تتفق آراؤهم على المكان الذى يجب أن يختار ، ولكن الآن فقد وهبتهم « ماريلاند »

بعض الأراضى التى وقع عليها اختيارهم ، واشتروا البعض الآخر من أصحابه . على أن بعض هؤلاء الملاك طلبوا أثماناً عالية مرهقة مما اضطر واشنجطن نفسه إلى الحضور من فيلادلفيا ليناقشهم فيما طلبوا من أثمان لأراضيهم .

فقال لأحدهم وكان اسكتلندياً عنيداً : لاتنس أنه لولا المدينة الاتحادية ما كنت تستطيع أن تبيع أراضيك مطلقاً ، ولقضيت حياتك كلها فقيراً .

فرد عليه المستر برنز ، وكان هذا اسمه ، : ولو لم تتزوج أنت من الأرملة كوستيس ذات الثراء الواسع لبقيت طول عمرك مساح أراض — مساحاً فقيراً حقاً . .

على أن المستر برنز رضى آخر الأمر . وكان يملك قطعة الأرض التى وقع عليها الاختيار ليقام فيها قصر الرئيس . وكذلك رضى غيره من الملاك الآخرين .

ثم قام المساحون بتطهير قطعة أرض حول البقعة كلها سعتها نحو عشرة أميال مربعة ، وأقاموا فيها معالم من الحجر، بين كل معلم وآخر ميل واحد لتدل الناس على أنها ملك الولايات المتحدة كلها ، فكان ذلك هو إقليم « كولومبيا » كما أسماه توماس جيفرسون ، وماديسون، وغيرهما من أعضاء اللجنة التى قامت بشرائها. وهم الذين أطلقوا على المدينة التى رجوا أن يتم بناؤها فى مدى عشر سنوات اسم واشنجطن . ولكن واشنجطن نفسه لم يستعمل هذا الإسم فى حياته مطلقاً بل ظل يسميها فى تواضع عظيم المدينة الاتحادية .

الرئيس يحافظ على السلام

كانت المدة الأولى — الأربعة الأعوام — من رياسة جورج واشنجطن هادئة هانئة بالإضافة إلى مدته الثانية من الرياسة . فقد حصل فيها على جميع أصوات الناخبين ، مثلما حصل عليها فى المدة الأولى ؛ ولكن لم يكد الشعب يبدى ثقته العظيمة به حتى أخذ كثيرون يقولون عنه إنه لا يعرف شيئاً عن عمله ، وأنه جحود غير مخلص ؛ وغير أمين ؛ وأنه أخرق أبله ؛ بل بلغ بهم الأمر أن قالوا عنه أنه خائن . فلمَ ذلك كله ؟

لأنه أبى أن يعلن الحرب .

كان ذلك فى عصر الثورة الفرنسية الكبرى ، فقتل الفرنسيون ملكهم لويس السادس عشر ، وكادوا أن يقتلوا ملكتهم كذلك . لقد تخلصوا من الحكومة الملكية وأقاموا بدلها حكومة جمهورية ، وأرهبوا ملوك أوربا كلهم وأفزعوهم ، مما جعل كل دولة أوروبية تقريباً تشن الحرب على فرنسا . وكذلك فعلت انجلترا .

فقال الناس فى الولايات المتحدة : مسكينة فرنسا هذه ! إنها عاونتنا فى حربنا على الانجليز ، فلزام علينا أن نعاونها ونأخذ بناصرها فى محنتها .

وقال آخرون : إن هذا القول ليستدعى الضحك ، فان الذى عاوننا هو الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا وليس هؤلاء الغوغاء الذين قتلوه ، فعلينا أن نساعد انجلترا على معاقبة فرنسا وعلى

إقرار القانون وإعادة النظام فى أوروبا .

وهكذا انقسمت الولايات المتحدة حزبين : حزب ينادى بشن الحرب على فرنسا ، وحزب يدعو إلى إعلان الحرب على انجلترا .

وسارت الجماهير حاملة الأعلام الفرنسية الجديدة تهتف ، وتشغب جول بيت واشنجطن فى فيلادلفيا عدة أيام متوالية . وكانت تهدد باخراجه من بيته بالقوة ، وباكراهه على معاونة الجمهورية الفرنسية . ولمَ لا ؟ هل نسى أن الفرنسيين ساعدوا المستعمرات الأمريكية فى كفاحها فى سبيل الجمهورية ؟

لا ! ان واشنجطن لم ينس شيئاً من ذلك ، فهو لم ينس الجنود الفرنسيين وهم يقفون مع الأمريكيين فى « يورك تاون » جنباً إلى جنب ، ولكنه لم ينس كذلك تلك المعركة التى حدثت فى البرية عندما وقف هو مع الانجليز يحارب الفرنسيين وحلفاءهم الهنود معاً . لقد حارب مع فرنسا وضد فرنسا . وحارب مع انجلترا وضد انجلترا ، ولكنه إنما حارب معهما وضدهما فى أمريكا ذاتها ، لا فى أوروبا ، ولا زال أمام الأمريكيين الشيء الكثير يعملونه لحماية أنفسهم ولتعمير بلادهم من غير حاجة إلى أن يجرهم أحد إلى حرب جديدة .

ان ما تحتاجه هذه البلاد الآن هو السلام لتنتج غلاتها ، وتبنى مصانعها ؛ فهى بحاجة إلى السلام لا إلى الحرب . رفض واشنجطن أن يعلن الحرب ، وجرّ على نفسه ، بذلك ، هذه العاصفة الهوجاء من

الإهانات ولكنه تحملها صابراً لعلمه أنها لا أساس لها ، ولا سند من الواقع ، وأنها لن تطول .

ولكن الرجل كان متعباً كل التعب . وكان فى أواخر مدة حكمه ، ويود أن يسلم منصب الرياسة إلى خلفه جون آدمز .

وقال جون آدمز : لقد اغرورقت عيون الناس وهم يودعون أول رئيس لهم فى آخر يوم من أيام عمله . وتجمعت الناس لاستقباله فى كل مكان يمر به وهو متجه إلى بيته . فكانوا يهتفون له ويصيحون بعبارات المديح والثناء ، وينظمون له حرس شرف فى كل مكان . وليس من شك فى أن ذلك قد أدخل السرور على قلبه . ألم يقل فيما بعد « إن رضى بلادى عنى يحقق أكبر أمنية لى ،وكل مطمح أصبو إليه » .

وأخيراً وقفت العربة الجميلة البيضاء التى تجرها ثمانية جياد فارهة ، قبالة مدخل داره ، فها هو يرجع إليها من جديد ، سعيداً كل السعادة أن يعود « المزارع واشنجطن » ! . وبذلك شعرت نيللى نفسها . ففى هذا كتب « المزارع السعيد » إلى صديق له يقول : إنه من الآن يستقبل كل يوم جديد مع مطلع الشمس ، فيطوف بشتى مبانى المنزل حتى يحين موعد الفطور فى الساعة السابعة ، ثم يمتطى جواده ويطوف عليه بمزارعه حتى يحل موعد الغداء الذى يندر ألا يقابل فيه وجوهاً جديدة ، جاء أصحابها على حد قولهم ليقدموا إليه تحياتهم . وبعد الغداء يتريض قليلا ثم يتناول الشاى ؛ وعندئذ تكون الشمس قد آذنت بالغروب ، فيمضى إلى مكتبه ليرد على

ما وصله من خطابات . ولكنه كان يشعر بشيء من التعب عندما تضاء الشموع .

على أنه مع تعبه الذى يمنعه عن كتابة الخطابات ليلا ، لم يكن ليمتنع عن تدوين يومياته ومذكراته التى ألف أن يدونها دائماً .

وكان يوما عيدىّ ميلاده الأخيرين حافلين بأحداث سعيدة يطيب له أن يدونها . ففى عام ١٧٩٨ فى عيد ميلاده السادس والستين حضر مع مارثا حفلة الرقص التى تقام له كل سنة فى الاسكندرية . ومع أن أيام مزاولته الرقص ولت فقد سره أن يشاهد نيللى الصغيرة المرحة ترقص مع لورانس لويس ابن أخته بيتى . وفى سنة ١٧٩٩ فى الثانى والعشرين من فبراير نزلت نيللى السلم فى ماونت فرنون مجلوة فى ثوب عرسها لتتزوج من لورانس لويس . هذا ولم يمض شهر نوفمبر حتى كان واشنجطن جداً ، فقد أنجبت نيللى طفلة صغيرة .

وكان يوم الجمعة السادس من ديسمبر سنة ١٧٩٩ آخر يوم دون فيه شيئاً من مذكراته . وكان الثلج قد تساقط بكثرة يوم الخميس ، فلما عاد إلى البيت لتناول الغداء كانت قطع الثلج تكلل شعره ، وكانت رقبته مبتلة . فمرض فى يوم السبت مرضاً شديداً ، ولم يعش أكثر من بضع ساعات ثم فارق الحياة .

وما كان الموت غريباً عليه ولا متعباً له . عندما حلت به الوفاة . فمات هادئاً مستريحاً مطمئناً كأنه فى غفوة ، فأغمض عينيه وفارق

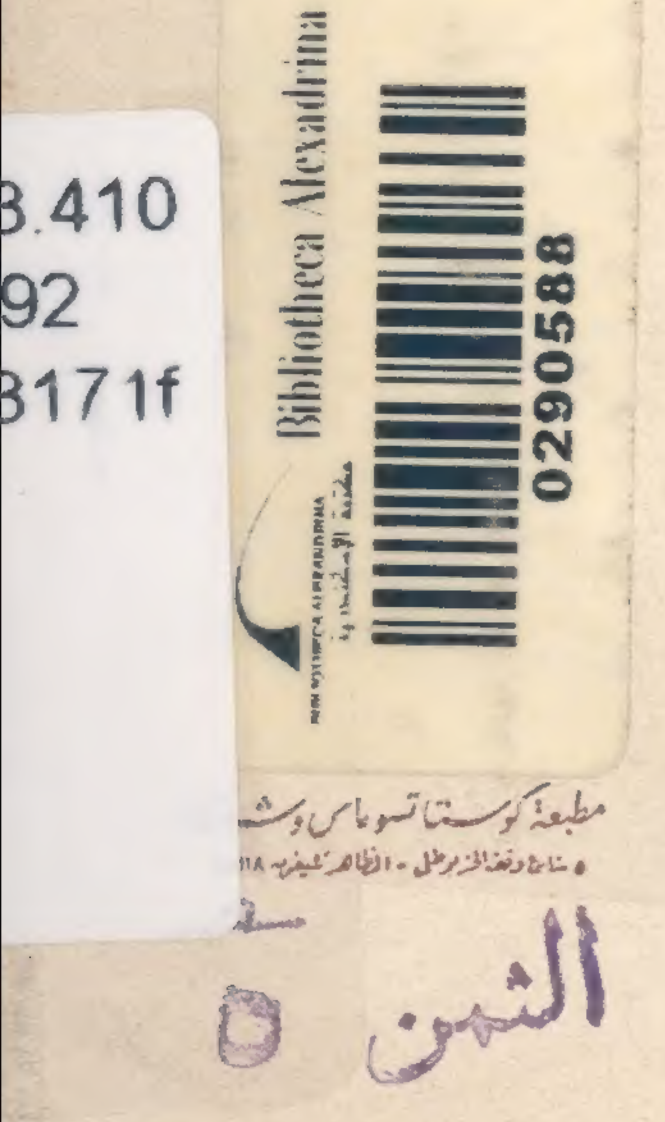
الحياة؛ وانقضى هكذا ذلك الجزء من حياته الذى عرفه حق المعرفة وعاشه أكرم عيش !

وفى عيد ميلاده انتشر خبر وفاته فى كل ركن من أركان البلاد، وحزنت عليه الأمة كلها ... هذه الأمة التى قادها فى الحرب وفى السلام . لقد خلق واشنجطن لنفسه مزكراً خالداً من مراكز الشرف والمحبة فى قلوب مواطنيه ، وفى الدنيا كلها .

« . . . إنى أعد جورج واشنطن زعيما مخلصاً ومحرراً لبلاده وأدرك كل الإدراك ما بذله من جهود وما اضطلع به من كفاح . . . لقد كان جورج واشنطن مثالا رائعاً قدمته أمريكا لبلاد العالم . . . وما أقوم به الآن من خدمات لمصر إنما هو الواجب الملقى على عاتق رجل يكن لجورج واشنطن الاحترام لما أداه لبلاده من خدمات . والواقع أنى لا يسعنى إلا أن ألاحظ وجوه الشبه بين تاريخ مصر الحاضر والمراحل الأولى من تاريخ أمريكا »

الرئيس محمد نجيب

من حديث له بمناسبة عيد ميلاد واشنطون فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٣



مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

الثمن ٥